سعود السنعوسي

ناقةُ صالحة

رواية

مكتبة
Telegram Network
2019

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ناقةُ صالحة

سعود السنعوسي

ناقةُ صالحة

رواية

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: آب/أغسطس 2019 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3750-6

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: 966509337722+

هاتف بيروت: 9613223227+

البريد الإلكتروني: editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

لوحة الغلاف: **للفنانة مشاعل الفيصل**

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس،** بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم،** بيروت - هاتف 786233 (+9611)

كلمة

غيمتك شَحَّت.. ومالح كل موج

أعطش، ويا كويت بيرك مالحة

ومنزلك قلبي، وأنا لولا الخلوج[1]

ما اترك دياري لديرة صالحة

دخيل بِن أسمر

من قصيدة "الخَلوج"

1901

لا نجمة في الليلِ تُنعِشُني

بضِحكتِها

ولا عنوان من أفَلوا

يضيءُ دروبَ من ظَلّوا

ولا رَحُبَ السَّبيلُ..

أبكي،

وعشقُكِ/ قبرُ أجدادي

وطعمُ الذِّكريات يضجُّ بي:

"يا عاشقَ الرَّملِ الذي لم يحتمِلْ قدميكَ

لحظةَ خطوِها،

صبرٌ جميلُ".

دخيل الخليفة

إلى

إمارة الكويت

ربيع 1941

الشَّيخ محمَّد

"الوصول؛ أكثر مشقَّة من الرَّحيل..".

قال الشَّيخُ لصبيِّه الأجير، لمَّا لاحَ له سورُ المدينة الطِّيني أثناءَ مجيئهما من الصَّحراء، ثُمَّ عدَّلَ عِقالَ رأسِه المائل، كيلا يتعرَّفَ أهلُ المدينة إلى القبيلة التي ينتميان إليها، في حين أبقى الصَّبي طلال عِقاله مائلًا. ورغم أن عداء قبيلتهما مع إمارة الكويت قد انتهى منذ سنواتٍ مشفوعًا بحلفٍ جديد، فإن الشَّيخَ محمَّد دأب على الفعل مُذ زارَ البلدة السَّاحلية أوَّل مرَّة زمنَ العداء، عندما مُنع أفراد قبيلتِه من دخول الإمارة والبيع والاكتيال والمقايضة فيها.

يُمضي الشَّيخُ وصبيُّه وقتًا صعبًا مع الإبلِ المذعورة وهي محمَّلةٌ بصنوفِ البضائع، يسوقانها غصبًا لتتخطَّى بوابة السُّور، دُروازة الجَهراء، مُزبِدةً وهي تُجعجع وتُثير الغُبار حولها. في الصَّحراء لا شيء يعلو الإبل إلا السَّماء، وسقف البوَّابة الواطئ يُثير الهَلَع في نفسها.

وكما لو أنه نذيرُ سوء، تجهَّم الشَّيخُ وغارت رقبته بين كتفيه، وتعرَّق جبينه رغم هبوبِ نسماتٍ ربيعيةٍ باردة، وقتَ جاءت مجموعةٌ من الحرس تقتادُ شابًّا مُقيد اليدين معصوب العينين إلى ساحة الصَّفاة. أربعة رجال يعتمرون الغترة والعِقال والقميص والسَّروال، اثنان من حرس الأسواق واثنان من مديرية الشُّرطة. أعلن أحدهم أنهم يقيمون حدَّ الجَلْد في الشَّاب بسبب التَّحرُّش. تهامسَ النَّاسُ يتساءلون عن المتحرَّشِ به بتوجُّس؛ النِّساء أم الحكومة؟

تجمهرَ البعضُ يتبع موكِبَ الجَلْد، بخليط من ثيابٍ صيفية وشتوية في موسم الرَّبيع، في حين واصلَ الشَّيخ والصَّبي يحدوان قافلتهما الصَّغيرة إلى السَّاحة.

فيما تنتشر روائح السَّمن الكثيفة وضَوع دبس التَّمور السُّكري وفوحُ ثِمار النَّبق، وترتفع صيحات سماسرة الماشية في ساحة الصَّفاة التُّرابية؛ يُرهِف الشَّيخ سمعه يُنصِت إلى خليط اللهجات؛ لُكْنة شمال البادية وجنوبها، ألسِنة نجدية، عشائر شمالية، رطانة فارسية، وكلامُ أهلِ الدَّاخل هجين من كُلِّ ذلك.

تنوخُ قوافل الإبل داخل السُّور أثناء أوبتها الموسمية من بادية الكويت وصحراء شبه الجزيرة العربية، مُحمَّلةً بالصُّوف والسَّمن والكمأ والإقِط وحليب النُوق والجَراد اللحيم، واليابس من نبات العَرفَج والحَمض وروث الإبل من أجل الوقود. يبيع الشَّيخ بعضها، ويقايضُ بالبعض الآخر ما يفتقر إليه أهل الصَّحراء من أواني الفخَّار والألمنيوم، والتُّمور والبُنِّ والرُّز والحِنطةِ والشَّعير.

يتربَّع الشَّيخُ محمَّد بثوبِه تُرابيّ اللون على الأرض المتربة بين بضائعه وجِمالِه، يُدني إليه نعليه النَّجديين المغبرَين، يدُسُّهما أسفلَ فخِذِه. يُحملق صوبَ المقبرة الغربية ويرفع رأسه يتحقَّق من موضع الشَّمس. يتململُ في جلستِه ويُطرِقُ هازًّا رأسه، كما لو أنه يهربُ من ضجيج السَّماسرة وزُوَّار السوق وأصوات البهائم. لا يمكثُ، على عادتِه، أكثرَ من نهارٍ واحدٍ في المدينة التي تضيق به ويضيق بها. يختتمُ زيارته الموسمية بزيارة مقبرة البلدة، يختفي فيها سويعة قبل أن يُقفل عائدًا إلى صحرائه. كان الشَّيخُ صَموتًا يتحاشى كثرة الحديث لئلاَّ تكشفهُ لهجته، كما لو أن أحدًا سيكترث لأمرِه.

عادته في الهروبِ من الحديثِ بأن يُزجي وقته غناءً وعزفًا على الرَّبابة، فبالغناء وحده تُنسى اللهجات وتنهجُ الكلمةُ المنغَّمةُ دربًا سالكًا إلى القلوب. يتلفَّتُ حوله، ينظرُ بعيدًا إلى أطراف السَّاحةِ صوبَ سيَّارات الأُجرة القليلة وسائقيها الذين يجلسون أرضًا يفترشون ظلالِها. يُدير وجهه إلى مقاهٍ مُشيَّدة من الخشب والصَّفيح، يُلعلِع في إحداها صوتٌ حادٌ أخنف يُغني عبرَ الغرامافون: "عواذل ذات الخال". يرمي الشَّيخ بصرَه إلى بعيدٍ آخر، زاوية بيع الأغنام، الحمير والبِغال، زاوية الأبقار، الخيل. وفيما تُحاصرُه روائح رَوث الحيوانات العشبية وأعلاف الماشية، تتدفَّق الأصوات في أُذنيه؛ نهيق وخوار ومأمأة وصهيل وغناء وأرقامٌ تُفلِتها الحناجرُ في مزادات بيعِ الجُملة؛ ثلاث روبيَّات، إحدى عشرة روبيَّة وثماني آنات.. يرتفعُ الصَّوت الأخنف في غرامافون المقهى كُلَّما خفتَ صخب السُّوق.

لا يكفُّ الشَّيخ التفاتًا، كما لو أنه يبحثُ عن فضاء البرّية الذي تركه قبلَ سُويعات، ولكن عينيه تصطدمان بالمزيد من السُّدود والمباني الحديثة؛ مبنى البلدية بقناطِره المقوَّسة، مبنى دائرة الشُّرطة والأمن العام بشرفاتِه السَّبع، مبنى دائرة البَرق والهاتف يقفُ عند مدخلِه، تحتَ مظلةٍ مُستديرة، رجلُ أمنٍ يعتمرُ الغترة والعِقال مع لباسٍ إفرنجي.

أمسكَ الشَّيخ رَبابته يُغنّي ويُخرس ضجيجَ السُّوق في أُذنيه. يحمِلُ همَّ الخروج إلى الصَّحراء ثانيةً، فهو يُكابد كُلَّ موسمٍ عند تخطّيه مع جِمالِه بوابة سور المدينة الطَّيني دخولًا وخروجًا. لم يكُن هذا السُّور قائمًا زمنَ الحاكم الأب، وكان دخول الإبل إلى البلدةِ أكثر سهولة. الجِمالُ التي لا تألف إلا ترامي الصَّحراء، مثله، لا تفهم كيف يعيشُ النَّاس في بيوتٍ طينية محشورة في سِكَكٍ ترابية ضيّقة، تغصُّ بالحُفَر والحَصى وراء سورٍ عالٍ. معيشة رتيبة بين الصُّنَّاع، دونما ترحالٍ أبديٍّ وراءَ نجمةٍ أو سحابة.

أسندَ الشَّيخُ رَبابتهُ إلى حِجره بعدما فرغ من غنائه بيتين من قصيدة "الخَلوج"، بعدما تجمهرَ حوله بعضُ العامَّة من الشُّيوخ والرِّجال والأطفال وحرَس الأسواق، والنِّساء غير بعيداتٍ يقفنَ بعباءاتهنَّ يُرهفنَ السَّمع. يُنصت الجمعُ إلى أُنشودته الشجيَّة. اقتربَ منه رجلٌ يرتدي ثوبًا سماويَّ الزُّرقة، سأله قبل أن يبتاع بعضًا من روث الإبل اليابس عن قصة القصيدة المغنَّاة. ابتسم الشَّيخُ عازف الرَّبابة نصفَ ابتسامةٍ ضاعفت تغضُّنات وجهٍ صبغته شمسُ البيدِ بسُمرةٍ داكنة. قال بلهجةٍ لا تُشبه خليطَ لهجةِ الدَّاخل: "إنها لـ دخيل بِن أسمر".

التفتَ صَبِيُّه طلال عاقدًا حاجبَيه يُحملق فيه. انطفأت ابتسامةُ الشَّيخ حينما لم يُبدِ النَّاسُ معرفةً بالشَّاعر الذي هجرَ قبيلته قبل سنوات، ولجأ إلى إمارة الكويت يعملُ فيها راعيًا لأغنام أحد تُجَّار المدينة، قبلَ أن يُنفَّذ به حُكمٌ مخفَّفٌ بالجَلْد والسِّجن بتهمةِ قتلٍ كان الشَّاهدُ فيها ناقةٌ خَلوج لم يُستدَل عليها.

تذكَّر الشَّيخ أن الشَّاعر نفسه لم يُفصح عن اسمه واسم قبيلته بعد هجره الصَّحراء، ورضوخِه لاشتراطات العيش بين أُناسٍ لا يُشبهونه ولا يُرحِّبون بأبناء قبيلتِه لعدائهم لحكَّام الكويت في ذاك الزَّمن. لو أنهم يعرفون أن أحدهم يقيمُ في عُقر دارِهِم لطردوه في أفضل الأحوال، ولكنه عوضًا عن الطرد من المدينةِ أقامَ فيها سجينًا.

مسَّدَ عازِفُ الرَّبابة لحيته المحنَّاة، رنا إلى الفضاءِ مُخزِّرًا عينيه كما لو أنه كان يقرأ حروفًا خفيَّة. أجابَ السائلَ بصوت خفيض:

"كان ذلك قبل أربعين حَولًا، تنقصُ قليلًا أو تزيد. لم يُطِق الرَّجل بقاءً في الصَّحراء، ولم تُطقه. هجرَها حينما زُوِّجَت محبوبته إلى ابن عمِّها، وأُشيعَ، ظُلمًا، أنه قالَ قصيدةً نِصفُها غزلٌ بمحبوبته ونِصفُها الآخر يهجو بها عمَّها شيخَ القبيلة. هامَ على وجهه في البراري قبل أن يشدَّ رحاله إلى الكويت. ألهتهُ المدينةُ ومشاغلها عن حنينه، حتى مرَّ بمسمعِه بكاءُ ناقةٍ خَلوج، فأنشدَ قصيدةَ "الخَلوج" يلومُ بها نفسَه فيما تنوحُ البهيمةُ وتحِنُّ إلى حُوارها الذَّبيح، وهو يُعانق الصَّمتَ عن حنينِه لأرضِه ومحبوبتِه وناسِه. لسوء حظِّه أنه لم يُقتل، إنما جُلِد وسُجن في الكويت ما يُقارب العشرين عامًا، وأُطلِقَ سراحه وقتَ حالفت قبيلته حاكمَ الكويت بعد عداء".

تعالى صياحُ الشَّاب المتحرِّش، وقد هوى سوطُ الحكومة على ظهره في ساحة السُّوق. انفضَّ النَّاسُ من حولِ الشَّيخ بعدما جنحَ الحديثُ إلى الأحلافِ والأعداءِ والحُكَّام، إلا الرَّجُل صاحبَ السُّؤال، لم يُبالِ بحكاية الشَّاعر وسجنه ومحبوبته، ولا بصياح الشَّاب تحت الجَلد. نقَدَ الشَّيخَ ثمن ما ابتاعه مِن روثٍ يابسٍ وسأله:

"إنمَّا أسألك عن قصة النَّاقةِ الخَلوج!".

قطَّبَ عازفُ الرَّبابةِ حاجبيه. يتذكَّر يومَ خروجِ الشَّاعر من السِّجن سنة 1920، يتلفَّتُ مشدوهًا بأعداد الرِّجال تبني سورًا حولَ المدينة. شيوخٌ يعجنون الطِّين يخلطونه بالتِّبن ويحضرون الجِصَّ واللَّبِن، صِبيةٌ يدلقون دِلاء ماء، ورجالٌ يرصُّون كُتل الطِّين يرتفعون بالجِدار عشرة أذرع، والنِّساء بعباءاتِهِنَّ السُّود يحملنَ على رؤوسهنَّ قدورَ الطَّعام للرِّجال. ودخيل بِن أسمر، في لُجَّة النَّاس بعد إطلاق سراحه، يحاكي وجيبُ قلبِه طبولًا تُقرَع بإيقاعِ رقصة الحرب، العَرضة، عرضًا لجهوزيتهم للقتال. أطالَ نظرهُ في السُّور قيد البناء، تذكَّر أن حاكم الكويت صعب المراس رفضَ مرارًا فكرة بناء سورٍ حولَ مدينتِه، يُلجم مُستشاريه إذا ما ألمحوا للفكرة قاطعًا حديثهم: "أنا السُّور".

لم يصدِّق دخيل نبأ موتِ الحاكم حينما أُشيع في السِّجن قبل خمسة أحوال، ولكنه أمام بُناة السُّور أدركَ أن الحاكم مبارك بِن صُباح قد مات، وهو الذي يحسبُه،

لِشِدَّة بأسِه، لا يموت.

تلكأ الشَّيخُ محمَّد قبل أن يُجيب اقتضابًا:

"سُجِنَ الشَّاعر، رفرفت القصيدةُ حُرَّة".

بدا الحزنُ على وجه طلال، وهو الذي يُنصت إلى حكايات الشَّيخ محمَّد في التِّرحال ويحفظُ تفاصيلها. تنهَّد رجلُ الحاضرة وهو يحملُ خيشة الرَّوث اليابِس:

"والخَلوج؟".

صمتَ الشَّيخُ محمَّد قليلًا، يشدُّ وتر رَبابته، قبل أن يُردِف مُنهيًا حديثه مع الرَّجل:

"العِلم عند الله".

* * *

أسمَيتُه "دخيلْ"

لأنه

بلا خُطى

يبحثُ عن مضاربٍ

في زمنٍ بخيلْ..

دخيل الخليفة

قبلَ العِلم

إمـارة الكويت 1901

دخيل

كان عليَّ ألا أكون أنا!

لفظتني الصَّحراءُ إلى مدينةٍ ترفضني. وعلى سبيلِ مغازلتها اضطررتُ إلى أن ألويَ لِساني على طريقة أهلِها في الحديث، أقلبُ الجيم ياءً وأُمطِّطُ الكلمات، رغم أني صموتٌ مثل الصَّحراء لا أجيدُ لهجةَ الحاضرةِ البحريةِ الصَّاخبةِ الخاليةِ من الحكمة. المدينةُ ثرثارةٌ بطبيعتها، والحكمةُ وليدةُ صَمت، والصَّمتُ لا يصيرُ صمتًا إلا في الصَّحراء.

ترجلتُ عن فَرَسي، وقمتُ بتعديلِ عِقالَ رأسي المائل على غير ما اعتدت، في قبيلتي، ما إن لاحَت لي البلدةُ في البعيدِ قُبيلَ وصولي، ببيوتِها الطِّينية قبل بناء سورِها بحوالي عشرين عامًا. استشعرتُ غصَّةً في حلقي وأنا أُعدِّل مَيلَ عِقالي، ولكن لا بأس، كان لزامًا عليَّ أن أكتفي بمَيلِ أحدِهما، العِقال أو الحظ. والدتي، بسبب سوء حظي، كانت دائمًا ما تقول لو أني تاجرتُ بالأكفانِ لكسَدَ الموت وغادر الدِّيار! لا تنفكُّ تردِّد كلَّما أسندتُ رأسي إلى فخذها: "دخيل، حظِّك قليل وزمانك بخيل". أُفكِّر في كلماتها مُستسلِمًا لأصابعها تتفرَّقُ في شعري تُفَلِّيه.

مات أبي في رحلةٍ إلى الحج، ودُفن في الدَّربِ حيث لا نعرف له قبرًا. ضاعَ في الصَّحراء، وأبي لا يضيعُ أبدًا وخارطته ليل السَّماء، ولكن.. لا نجوم في القبور. ما ورثتُ بموتِ أبي إلا حُزن أُمي، وقطيعًا من الإبل أمضي معه معظم يومي في البرّ. لم نكن نُقيم بعيدًا عن محلِّ إقامة قبيلةِ صالحة.

همتُ بناقِشة الحِنَّاء، ابنة عَّمتي، منذ صغري. بنتٌ لا تشبه بنات قبيلتها،

"صالحة بِنت أبوها"، حمامةٌ وحشيةٌ بين فواخِتَ وادِعة، فرسٌ جَموحٌ عصِيَّةٌ على الترويض. المجنونة طارِحةُ النُّوق، تبزُّ فتيان القبيلة في مُبارياتهم. ما رأيتُ مثلها قط، وقتَ تُطبق قبضتَيها على ذيلِ النَّاقةِ تجرُّها للأسفل، وتلوي بساقِها الصَّغيرة قائمتي النَّاقة الخلفيتين وتطرحها أرضًا. تتفوَّق على عجائز القبيلة بلسانها السَّليط ونَقش الحِنَّاء. أحببتها لأنها كثيراتٍ في واحدة. صعبةٌ سهلةٌ حُرَّةٌ فاتنة، ذكيَّةٌ غبيةٌ خجولٌ ماجنة، كذَّابة صدوق. هي في الحقيقة ما كذبت قط، ولكنها مثل العجائز إن أرادت قولَ الحقيقة مثَّلتها بحكاية تختلقها؛ النعجة الغبية سكبت وعاء الحليب، فأفهم أنها من أسقطته.. عاثت الأفعى في أعشاش الحبارى، فأعرف أنها داست بيوضها عامدةً أو بغير قصد.. ناقتي لا تُحِب عِقالَك مائلًا، فأُعدِّل عِقالي.

أحببتُ حماقاتها وقتَ ترتكبُ فعلًا مجنونًا ثُمَّ تلوذُ مُتكَوِّرةً بخيمتِها، ولتشتعل الدُّنيا في الخارج. أحببتُ غباءها وقتَ يلتبسُ عليها فهم أي شيء حتى مشاعرها؛ تُطلِق جنون ضحكاتِها إذا ما داهمها خوفٌ أو حلَّ بها كرب، وتُذرف الدَّمع سخيًّا في فورة فرح. أحببتُ وجهًا ما رأيتُ مثله قط، يؤاخي بين ملامح النَّحيب دمعًا وتقطيبة حاجبين، وبين ثغرٍ يُكركر.

أُحببتُ فيها ثيابها المشجَّرة المزهَّرة، كما لو أنها تستعيض بالرَّبيع ثوبًا في الصّيوف القائظة. ابنة عمَّتي حُلوة الصَّوت وأحيانًا اللسان، وأنا أردتُها وما أردتُ غيرها. قبيلتانا لا تُمانعان، ولكن عمَّها، شَيخ آل مهروس، أرادها لابنِه صالح. أصدرَ الأمرَ كما لو كان أمرًا إلهيًّا لا رادَّ له وقتَ أرسلتُ والدتي تطلب ابنة عمَّتي للزَّواج: "صالحة مُحجَّرة لابن عمِّها مُذ كانت صغيرة". كنتُ ابن خالِها، ولأنه كما يُقال: الخال خَليّ والعَم وَليّ، فقد لعبَ الحظُّ لُعبته الأثيرة ضِدّي. شيخ القبيلة يولي محبَّة عظيمة لبِكرِه صالح، أراد أن يكافئه بأجمل فتيات القبيلة وأكثرهنَّ صيتًا، كما لو أنه ابنه الوحيد، رغم أن فالح يتفوَّق على صالح في كلِّ شيء؛ في الشِّعر والفروسية وشؤون الهجن، ولكن شيخ القبيلة لا يرى أحدًا من أبنائه إلا صالح.

صالحة تدري أني أُحبُّها، وهي تُحبُّني وقد رأيت ذلك في عينيها، وهي تحسبُ أني لم أنظر إليهما قط، ولم تدرِ أني أُناورها، أُطيل النَّظر في وجهها إذا ما أطرَقَت أو انشغلت بالنَّظر إلى شيءٍ بعيد، وهي نادرًا ما تنظرُ إلى شيءٍ أبعد من وجهي. أُطرق أُحدِّق في كفِّها اليُمنى وأصابعها الدَّقيقة إذا ما نظرَت إليَّ، لئلاَّ تكشف عيناي ما أُبطِن.

راحت صالحة لابن عمِّها صالح. "لعلَّ الأقدارَ تجمعهما على صلاح"، قالت والدتي، رحمها الله، وهي جالسةٌ على نسيج السَّدو الأحمر، تخضُّ قربة اللَّبن في خيمتنا ذات ظهيرة، وضوعُ القهوة ينتشر مع دُخان الرَّمث المحروق، تستعينُ باسمَيهِما، تهوِّن عليّ. صالحة وصالح يبدوان أكثر ملاءمة من صالحة ودخيل على أيِّ حال!

تزوَّجا في الرَّبيع، كما لو أن الصَّحراء كُلَّها راحت تحتفي بالزِّيجة، تُظلِّلهُما بالغيوم، تُثير الأرضَ صُفرةً بزهور النُّوَّير، تنثُّ ضوعَ الخُزامى، وتدعو الطُّيور المهاجرة تزُفُّهما إلى خيمةِ الزَّوجية، في أرض الشِّعاب التي أحبَّتها صالحة وأحببتُها. أو لعلَّ الصَّحراء كانت تحتفي بخروجي منها إلى أين؟ دخيل بِن أسمر، اسمٌ كفيلٌ بتعريف سامعه من أكون، وإلى أي قبيلةٍ أنتمي، وأنا لا أريدُ لأحدٍ أن يتعرَّف إليَّ في حياةٍ جديدةٍ أنوي بدأها في البعيد. دخيل الذي كسرَ ناموس القبيلة، قالَ قصيدةً أغضبت عمَّ صالحة وقبيلته، وأنا والله ما فعلت. همتُ في الصَّحراءِ حَولَين كاملين قبل أن يدفعني جنوني لأن أستقر، على غير فطرتي، في مكانٍ لا ناقة لي فيه ولا بعير، مكان لا يجيء ببالِ أحد.

إمارة الكويت، منفى الغُرباء، وأرض الولادات الجديدة على رأسِ الخليج، رغمَ أن قبيلتنا تناصبُ حُكَّامها العداء في ذاك الزَّمن، ولكن من يدري؟ لا يلزمني الأمرُ إلا اسمًا جديدًا، ومحاكاة لهجةٍ هجينة، وتعديل مَيلِ العِقال على رأسي، وترك أمر مَيلِ الحظِّ إلى تلك البلدة، لعلَّه يجدُ فيها ما يقوِّمُه. اتخذتُ اسمًا جديدًا. صرتُ مُحمَّدًا بن عبدالله الشَّاوي، نسبةً إلى شياهٍ سوفَ أرعاها. لم أتمكن من العيش مع مهنة أُخرى، هو الحظ الذي أوقعني بأن أكون راعيًا لأبغض المخلوقات عند صالحة المجنونة؛ أتُراها ما زالت تنعتُ الخراف بالغبية؟

أهل المدينة متديِّنون بطبعِهِم، وقد دخلتُ عليهم باسمِ النَّبي ومهنته قبلَ النُّبوَّة، ساعدني ذلك كثيرًا بالثقة التي حظيت بها. صرتُ أرعى أغنامًا نصفُها لأحد التُّجَّار، والنِّصفُ الآخر لأهلِ البلدة. أطوفُ، مع شِياه التَّاجر، قبل طلوع الفجرِ في السِّكَكِ التُّرابية بين البيوتِ الطِّينية عالية الأسوار وأبوابها الخشبية المواربة، أهزُّ الجرَسَ في طوافي، تخرجُ الشِّياهُ من البيوت أفواجًا تملأُ السِّكَك الضَّيقة، مثلَ الحجيج، تتبعني إلى مراعي الكلأ في البادية، تنتشر في المساحات المخضرَّة تعتلفُ الحشائش والخُبَّيز والعَرفَج لساعات. أعودُ في آخر النَّهار أطوفُ السِّكَكَ إياها، مودِّعًا كلَّ شاةٍ تتعرَّفُ

إلى بيتِ صاحِبها، تنسلُّ من القطيعِ مُنفردةً مُسرعة، وتختفي وراء بابِه الخشبي الموارَب، حتى أُدركُ، ليلًا، البيتَ ذا الحوشِ الكبير، أودعُ أربعين رأسًا من الغَنَم يملكها التَّاجر، ثُمَّ أُقفل إلى خيمتي وراء آخر البيوت المطلَّة على الصَّحراء.

كنت قد أتممتُ الهلالَ الأوَّل هُنا، وقتَ خرج رجالُ الإمارة بقيادة الحاكم، الشَّيخ مبارك بِن صُباح، والأمير ابن سعود إلى إمارةِ حائل، للقاء أعدائهم فيما سوف يُسمَّى بعد ذلك بـ معركة الصّريف، بين إمارة الكويت وحلفائها وبين قبيلتي في الطَّرَف الآخر! آثرتُ البقاء مع شِياهي، بين الإمارةِ وباديتِها، على أن أورطَّ نفسي في معركةٍ لا أفهمُ قوانَينها، دخولها عسيرٌ كالخروج منها، مثل سيقان العَرفَج في كومة صوف. ضاق رأسي بالأسئلة كضيقِ هذه الحاضرة ببيوتِها الطِّينية. بقائي هُنا ينتقصُ من نخوَتي لتخلُّفي عن نصرة القبيلة، رُبَّما، ولكن انضمامي إلى قُوَّات أميرنا ابن رشيد يعني مواجهة رجالِ إمارة الكويت، وهذا أمرٌ هيِّن، ولكن كيف لي أن أواجه أبرز حلفائهم، شيخ آل مهروس، عَمّ صالحة ووالد زوجها؟! صرتُ أحمل له عداءً مُضاعفًا، ولكنني لن أفرح بموتِه ثانيةً، تكفيه الميتة الأولى وقتَ الهجاء الذي حملَ اسمي.

في فترة بقائي هُنا، ما نفرتُ من شيءٍ بقدر ضجيج الخليج المالح، وثرثرة أمواجه التي تُسمَع في البعيد ليلًا، والأسوار العالية والأبواب التي تبتلعُ أبوابًا، والطِّين الذي ينهضُ من الأرض ليصيرَ بيوتًا تلتهمُ ساكنيها كالقبور. والقبور، وحدها القبور هُنا تُعجبني، يُحيطها النَّاسُ بسورٍ في مكانٍ معلوم، كي لا تهرب وتضيع في الصَّحراء مثل قبر أبي.

لم أفتقد شيئًا إلا مفازةً لا يُرى آخرُها، وخيامًا مُتناثرة في العراء مثلَ حَّبات خالٍ تُرصِّع ظهرَ فتاة عارية، وعُواء ذئاب الليل، وعَزيف رمالٍ تسوقُها الزوابع، وعيون الماء العذب، وغناء حادي الإبل، وتمايل أعناق جِمالِه طربًا مع الحِداء، وأرضًا تلفظُ كمأها في الرَّبيع، وأراضيَ خبراء بعد ليالٍ مطيرة، ونطيط اليرابيع الوجِلة في الليل، ونبتات الرَّمرام يستظلُّ بها الوَرَلُ أو يحكُّ جسَدَهُ بأوراقِها يُبرئ نفسه من لدغةِ عقرب أو حَيَّةٍ رَقطاء، وحليبَ نوقٍ بطعمِ الورد، ونقوش الحِنَّاء في كفوفِ بنات القبيلة، واسمي.. اسمي الذي نذرتُ على نفسي أن أُعانق من يذكره أمامي، وإن بالخطأ، وأُعانق فيه نفسي التي أشتاقُها في غير هذا المكان.

لم أفتقد شيئًا إلا ما ذكرت، والنُّجوم، حتى النُّجوم تبدو في الصَّحراء أقرب، تكادُ تقطفُها بيدِكَ مثلَ بلحِ نخلةٍ فتِيَّة. أما النُّجوم هُنا فتبدو بعيدةً في سماء مدينة الطِّين، مثل صالحة.

طوَّقَ الخوفُ أهلَ البلدةِ ذات ليلة، بعدَ فرحِ ليالٍ وردَت فيها أخبارٌ عن استيلاء حاكم الإمارة ورجالِه على بعض مناطق نجد نُصرةً لحليفِه بِن سعود واستردادًا لحكم أسلافه، فقد تواردت أخبارٌ عن هزيمة رجال الإمارة في الصّريف، شمال شرق بريدة، في نجد. النَّاسُ في المدينة يُخزِّنون المؤن والماء كما لو أن القيامة وشيكة. يتهاوشونَ في مرسى المراكب المقفلة من شطِّ العَرَب مُحمَّلةً بالماء العذب، فآبار هذه المدينةِ مالحة كخليجها. كنت في البَين، لا أجدُ لي محلاً بين النَّاس التي تخشى غاراتٍ يشنُّها رجالُ أميرنا ابن رشيد على الكويت إثرَ انهزام رجالها. اللعنة! هل تلحقُ بي القبيلة إلى هُنا؟

لم تسعني الحِيَلُ كي لا أكون أنا، وفق ما رغبت، مع الجميع. إنه الحظ مرَّةً أُخرى. توافدَ الجرحى إلى ساحةِ المدينة التي غصَّت بهم، يموت البعضُ وهو ينتظرُ دورَهُ لِجَبرِ كسرٍ أو كيٍّ أو تقطيب جرح. أثارت مجموعة من الهجَّانة زوبعةً من الغُبارِ تحملُ جريحًا يبدو على قدرٍ من الأهمية. صاحَ أحدُ الرِّجال الملثَّمين من بعيد. يطلبُ معاونًا على إنزالِ الجريح بعدما أناخَ بعيرَه. كان الملثَّمُ فالح شقيق صالح بِن مهروس، ابن شيخ قبيلة آل مهروس، مجروح السَّاعد مُلطَّخًا كُمُّ ثوبِه بالدَّم. تعرَّفتُ إليه من صوتِه وحاجبيه العريضَين. أحكمتُ ربطَ لِثامي على وجهي. التفتُّ صوبَ البعير الأبيض؛ ساري، عرفتُ هذا البعير قبلما أتحقَّقَ من الوَسمِ الموسومِ بالكَيِّ أسفلَ عُنُقِه بهذا الشَّكل 木. نظرَ فالح إلى عينيَّ نظرة ريبة. اقتربتُ من الجريحِ فإذا به شقيقه صالح، زوج صالحة وابن عمِّها شيخ القبيلة، مُغمض العينين يهذي، وقد أحالتهُ رصاصات البنادق العثمانية إلى ما يُشبِه المنخل الصَّدئ.

أمسكتُ بذراع صالح. كان هامِدًا، بَدا مَيتًا لولا دموعٌ هطلت من عينيه أحالت غُبارَ وجهه خيوطًا من الطِّين، وهو ينظرُ إلى عينيَّ من وراء اللثام، ويُطيل النظر إلى النُّدبة في حاجبي الأيسر ليتحقَّقُ من كوني أنا، في آخر مكان يتوقع فيه لقائي. لم أفهم سببًا لدموعِه. عاونته على النُّهوض، اتكأ على بندقيته الإنكليزية، وأسندَ ذراعه إلى كتفي. حملتُه برفقة فالح إلى ساحة مُداواة الجرحى، حيث اجتمع المتطوعون من المداوين الشَّعبيين رفقةَ أطباءٍ أرسل بهم أمير عربستان، إلى الكويت، بعد انتهاء

المعركة. سقيته ماءً، ومكثتُ سويعةً عند رأسِه في غياب فالح، وانصرفتُ بعدما أنصتُّ إلى هذيانه وهُم يُخرجون الرَّصاص من جسده بالملقاط، يُلقون به في وعاءٍ نحاسي يُصدر رنينًا كُلَّما تلقَّف رصاصة. حجمُ الرَّصاص يشي بأنه أُطلِقَ من بندقية إنكليزية، أتراهُ أُصيب بالخطأ؟ أيُصاب المرءُ خطأً بكلِّ تلك الرَّصاصات!

لولا الرَّصاصات في جسدِه، رُبَّما، لخنقني بكلتا يديه انتقامًا لوالِدِه المهجو. لم أحمل له شيئًا في خاطري عدا سويعات كراهية أطول من الدَّهر؛ إن ذلك الجسد قد لامسَ جسد صالحة مرَّاتٍ ومرَّات. تفكَّرتُ في رصاصاتِ بنادق المارتيني في جسدِه، فطابَ خاطري. وعلى مبعدة خطواتٍ من ساحة الجرحى سمعتُ من يُنادي:

"يا الذِّيب!".

كان فالح على ظهر ناقتِه، بجسدِه الهزيل وثيابِه الممزَّقة وقد ضمَّدَ جُرحَ ساعِدِه. نكزَ بطنَ ناقتِه يقودُها نحوي وقد تعرَّف إليّ. كما لو أنه يدري بعوزي لسماع اسمي؛ دخيل، وضَنَّ في أن يتصدَّق بحروفِه. ماذا لو ناداني باسمي؟ هل أوفي بنذري وأُعانقه؟ هو ليس صالح على أي حال، كان فالح دائمًا أكثر نُبلًا. حدجني من أعلايَ إلى قدمَي بنصفِ ابتسامة:

"تعرَّفتُ إليكَ من هذه".

أشارَ بإصبعِه إلى حاجبِه الأيسر. تحسستُ النُّدبة القديمة الخالية من الشَّعر في حاجبي. لم يكن أوان شِعرٍ ولكن فالح باغتني ببيتٍ من هِجاء أبيه المنسوب لي.

"لستُ القائل"، أجبته مُقاطعًا أدفع عني تُهمة.

"أدري".

قال قبل أن تستديرَ به ناقته، كان يُعلق على كتفيه بندقيته وبندقية صالح. أشارَ نحوَ ساري، يُنهي حديثه:

"لك".

فالح يُهديني جملَ أخيه، ويستولي على بندقيته وأخوه لم يُسلِم الرُّوح،

ويُناديني بغير اسمي كيلا ينكشفَ أمري في ديار من يُعاديني، ويسوطُ ظهرَ النَّاقةِ ويرحل، وأنا لا أفهمُ شيئًا. ما زلتُ أتحسس نُدبة حاجبي، أنظرُ إلى فالح على ظهر ناقتِه التي خبَّت سريعًا صوبَ الغرب. وأُفكِّر في تلك الليلة التي مضت، قبل عشر سنوات، وقتَ قطعَ طريقي مُلثَّمٌ نالَ مني بمقبضِ خنجرٍ ما زلتُ أحتفظ به في مزودتي.

ليلة موتِ صالح، في اليوم الثالث لعيد الأضحى، كنتُ في خيمتي، على تخومِ المدينةِ الضَّاجَّةِ بأنينِ جَرحاها، بعدما سُقت آخرِ شاةٍ من الشِّياه القليلة إلى بيت أصحابها. قليلٌ من الخراف نجَا صبيحة العيد. تقلَّبتُ في فراشي. جَزَت عيناي عن النَّوم، ولا شأن لموت غريمي بالأمر، ولكن كلماته الأخيرة وقتَ زرته ثانيةً ما انفكَّت تُدوِّي في أُذني: "ما راعيتَ حُرمة..". لم يكُن ينظرُ في عينيّ وهو يتمتم: "ظفرَ ساري بـِ وَضْحَى وما ظفرتُ بقلبِ صالحة". ارتعشت شفته السُّفلى وأفلتَت عيناه الدَّمعَ سخيًّا قبل أن يُسلِمَ الرُّوح. بترَ الموتُ كلماته الأخيرة: "مرادك في الشِّعاب الغربية.. في ديار صال-..".

في مَرقدي، على صَوت هدير البحر، غفوتُ أُفكِّر في تلك الدِّيار، وأيُّ حُرمة انتَهكت! طفوتُ ما بين حُلمٍ وعِلم، تناهى إلى مسمعي عواءُ ذئاب البرِّية يتردَّد في الفضاء البعيد. وحده الاغترابُ يمنحكَ حنينًا لكلِّ ما تكره في ديارٍ تشتاقُها. مع بزوغ الفجر انتبهتُ إلى عويلِ امرأةٍ يجيءُ من خارج المدينة ناحية البادية. صرخات متقطعة خللَ أُنشودة الذِّئاب. أرهفتُ سمعي أتحقَّقُ مما سمِعت. لعلَّ أحداث البلدة التي استحالت مأتمًا تسلَّلت إلى أحلامي. كان العويلُ ما زال يصدرُ من مَرْبَعٍ قَصيّ. نهضتُ جالسًا في فراشي الصُّوفي على الأرض أُنصِت، لعلِّي أُبدِّد وَجْسَ أحلامي. خرجتُ من الخيمة أتلفتُ صوبَ بادية المدينة. لا عواء ولا عويل. لا شيء ساعةَ الفجر إلا فَرَسي تدورُ حولَ نفسِها في أُفول الظَّلام، وساري، مربوطًا إلى وتَد، ليس بعيدًا عن الفرَسِ يُرغي، وصوتٌ يجيءُ من بعيد. نُواح ناقة! نعم، نُواح.. لا بغام ولا رغاء. لا عُواء ولا عويل. أنا أعرف هذا الصَّوتَ جيِّدًا، "إنها ناقةٌ خَلوج"، قلتُ في نفسي. فرَّ النَّومُ من عينيّ. ذلك الصَّوت يجُرُّني إليَّ في زمنٍ مضى. كم من خَلوجٍ مرَرتُ بها في دياري، تجتثُّ نياطَ قلبِ سامِعِها ببكائها وأدمعها تسحُّ على الأرض. داهمني حنينٌ على نحوٍ مفاجئ إلى حيثُ كنتُ قبلَ حَولين. أقفلتُ إلى خيمتي وشيءٌ يُشبِه الفجيعةَ في نفسي؛ كيف للبهيمةِ أن تحنَّ إلى حُوارِها في حين ألتحفُ صمتي

عن حنيني إلى أهلي وناسي ومحبوبتي. ماتَ صالح إذن، ولم تعُد صالحة على ذمَّة رجل. جلستُ إلى جوار الخيمة أشعلُ نارًا، ورحت أُحَمِّس قهوتي مُنصِتًا إلى نُواحِ الخَلوجِ، والدَّمع يسحُّ من عينيَّ كما لو أني أُنصِتُ فيه عزفَ رَبابة.

هاضت مشاعري الهاجعةِ في نفسي مُذ هِجرتي. تفكَّرتُ فِيَّ وفي منفاي المالِحِ وفي عذوبة صالحة. تذكرتُ قبيلتي والرِّجال وقتَ نتحلَّقُ حولَ نارِ الخيمةِ ليلًا، هدوءٌ لا تُعكِّر صفوَه ثرثرة البحر، نتبادل الأحاديث حول الغزواتِ والغارات، ونبوءات المطرِ وأراضي المرعى وأمراض الماشية. تذكَّرتُ ليالي سهرتُها مُستلقيًا أُنادم النُّجوم، أتوسَّلُ وأتسوَّلُ واحدةً تدُلُّني على قبر أبي الذي ابتلعته الصَّحراء. لفظتُ كلَّ ما خالجني إزاء صوتِ الخَلوج شِعرًا، لقَّنتني إيَّاهُ شياطين الشِّعرِ قصيدةً طويلةً صارَت النَّاس تحفظها باسمِ "الخَلوج". ما الذي يمنعني من العودة إلى صالحة وقد ماتَ صالح؟

دخلتُ خيمتي أفتشُ عن رَبابتي التي قاطعتها مُذ يومِ زواج صالحة. ألفَيتُ وتَرَها الوحيد وقد شاخ. أخرجتُ الخنجر القديم من مزوَدَتي، وحملته إلى الفَرَس، أقصُّ خصلةً من ذيلِها وأجدلُ منها وترًا جديدًا. كان ساري ساكِنًا، يُدير للنَّار ظهره وينثرُ بذيلِه بولَه، يُقابل الغربَ ويتزَغَّم شَبِقًا. دخلتُ مخدعي بعدما أنشدتُ للنَّار ما لقنتني إياه شياطين الشَّوق على رَبابتي وأنا أزمعُ على الرَّحيل؛ "ومنزلك قلبي، وأنا لولا الخلوج/ ما اترك دياري لديرة صالحة". رحتُ أتوسَّلُ نومًا على نُواح النَّاقة الثَّكلى، ولكني ما كدتُ أُمسك بطرف نومٍ إلا وعويلُ المرأة يعودُ إلى مسمعي يوقظني. أتحقَّقُ من الصَّوت ثانيَّة: صوتُ ناقةٍ خَلوج!

عاودتُ الجلوسَ أمام النَّار التي صارت جمرًا مع طلوع الشَّمس، أُدبر عن هدير الخليج، أُقبل على نُواح الخَلوج. عزمتُ على الرَّحيل إلى صالحة في ديارها قُربَ الشِّعاب الغربية. ارتفعَ بُكاء الخَلوج. قطعَ ساري حبلهُ المربوط إلى الوتد. وراحَ يخبُّ مُسرِعًا يهجُّ نأيًا صوبَ الصَّوت. قفزتُ فوقَ فَرَسي ألكُزها لتُسرع وراءَ جملِ صالح، قبل أن تبتلعه البَرِّية.

أيكون ما في خاطري؟

العِلم عند الله.

* * *

أنا الذي آمنت..

أن الجذرَ يحمل صامتًا ألم التُّرابِ

وأنا وأنت..

مسافتان لغربة السَّنوات

أركضُ نحو **شمسِكَ**

أم.. تحنُّ إلى خرابي؟

دخيل الخليفة

العِلم

بادية الكويت 1901

صالحة

قد أكذب لأُخبركم الحقيقة، هذه هي الحقيقة.

بعيدًا نُخيِّم عن القبيلة كُنَّا؛ صالح وأنا وولدي، نتحقَّق من وصول السُّيول إلى الشِّعاب بعد أيامٍ مطيرة، لنعود ونخبر القبيلة قبل هلال عيد الأضحى. لا زرع في الأرض، ولا مياه في الشِّعاب بعد، تأخرت هذا العام، لعلَّها تصل في الغد.

كنتُ أُجدِّل شعري، لا أفهم سببًا لحنقي إزاء ما بدرَ من صالح، قبل سويعاتٍ أمامَ صدوع الأرض الغائرة. كان ساهمًا ينظرُ إلى أرضٍ يدريني أُحبُّها، وأُحب المكوث فيها كُلَّ ربيعٍ بسببِ الخُضرة والماءِ فيها. ابتسَم:

"ديار صالحة".

لم يبدُر مني ما يُبديني سعيدة بالتسمية.

"أي نعم أُحب هذا المكان، ولكني لستُ جديرةً بأن يحمل اسمي".

تنهَّد صالح. أعرضَ عني:

"ديارٌ عذبةُ الماء..".

سارَ يبتعدُ مُنهيًا حديثه:

".. ديارٌ صالحةٌ للعيشِ أعني".

انسللتُ إلى خيمتي الصَّغيرة أستغربُ شعورًا داهمني. لماذا شعرتُ بإهانة؟

ما كدتُ أفرغ من الجديلةِ الثانية حتى سمِعتُ نداءَ وَضْحَى، ناقتي البيضاء الأثيرة، يُسمونها في القبيلة ناقةَ صالحة لشِّدة التصاقنا ببعض. ويُسموننني صالحة "بِنت أبوها" لأن ليس لأبي من الأبناء غيري، رغمَ زيجاتِه الكثيرة، فكنت ابنته وولده في الوقتِ نفسِه.

كان صالح قد أناخَها وربط قوائمها وعصبَ عينيها قبل أن يأخذَ حُوارَها الذي أتمَّ عامه الأوَّل، من أجلِ أن يسِمَ عُنقه بوَسمِ مِلكية القبيلة. ألفيتُ وَضْحَى، معصوبة العينين، تُجَعجِع وتُمرِّغ رأسها بالتُّراب، تتفقَّد رائحة ولدِها. ركضتُ إلى صالح المقعي فوقَ الحُوار المطروحِ أرضًا مُكبَّل القوائم. ولدي الصَّغيرُ يقفُ إلى جوارِ صالح مبحلِقَ العينين فاغر الفم يسيلُ منه اللعاب. هُو يُحبُّ الحُوارَ بقدرِ محبَّتي للنَّاقةِ الأُم. أطبقتُ قبضتي على ذراعِ زوجي قبل أن يُلامسَ السِّيخُ الملتهب عُنُقَ الحُوار. التفتَ إليَّ مُستغربًا استنكاري فعلًا اعتياديًا. حملتُ صغيري منفرج السَّاقين على خاصرتي، فالتفتُّ إلى أبيه أتوسَّله ألاَّ يفعل، فلا أحد يَسِمُ الإبل في هذه السِّن.

"ماذا بك؟"، قال غاضبًا على دأبِه.

"عندي وَلَد"، قلتُ له.

تفهَّم صالح وهو المولعُ بالولد، وقد قُمت بالفِعل نفسِه، يومَ بلغَ صغيري عامه الأول قبلَ شهور، لحظةَ أطبقتُ قبضتي على مِعصَمِ عجوز القبيلةِ؛ أُم دَحَّام، وهي تُمسك بأصابعها المرتعشة شفرةً حادَّةً جاءت بها من أجل ختان الولد، ذلك الذي لا أظنُّه سوفَ يتمُّ أبدًا. فليكبُر ويتخلَّص هو من قُلفَتِه إن شاء ذلك. لم يُعجب العجوز تصرُّفي. بحلقَت فيَّ بعينين ضيِّقتين في وجهٍ شبيهٍ بوجهِ العنز. قالت بصوتٍ يُشبِه المأمأة:

"تعاندين أمر الله يا بنت! روح الولدِ أغلى من قُلفَتِه".

استنكرَت النِّساء عنادي. حذَّرَت أُم دَحَّام وهي تُشيرُ إلى الولدِ بسبَّابتِها فاغرةً فمها الخالي من الأسنان:

"إن عاشَ بقُلفَتِه؛ يعيشُ ملعونًا.. إن عاش".

عبستُ وحملتُ الولدَ ولذتُ بخيمتي، فهو ملعونٌ مُذ كان في بطني، ولعنةٌ فوق لعنةٍ تُعجِّلان في الخلاص. أودعته فراشه وجلستُ إلى جوارِه أضمُّ ركبتيَّ إلى صدري، أسندتُ إليهما جبيني وأطبقتُ أُذنيَّ بكفَّي لئلا أسمع صرخات العجوز الغاضبة، وهي تصفني على دأبِها بالبلادةِ والغباء، وكلماتها المخيفة عن اللعنة والحياة والموت. هو سبيلي الوحيد للفرار الذي تعرفني به القبيلة مُذ كنت طفلة تمقُت الخيمة مُغرمةً بالفَلاة، ألوذُ بخيمتي أتكوَّر على ذاتي، وقتَ ارتكابي حماقة. تتنادى النُّسوة في الخارج: "صالحة بنت أبوها في الخيمة.. صالحة بنت أبوها في الخيمة"، وينتشرنَ في الأرضِ يبحثنَ عن حريقٍ أو دابَّةٍ ذبيحةٍ أو ضحيةٍ خلَّفَتها الصَّبية الغبية وراءها، ولكنهنَّ لم يبحثنَ في العراء عن ضحيتي تلك الظهيرة، لأنها كانت تنامُ بقُلفَتِها داخل الخيمة ملعونة إلى جواري.

أفلتَ صالح السِّيخَ الأحمر الملتهبِ على التُّراب، في حين رحتُ أفكُّ رباط قوائم الحُوار أُحرِّرُه، وأسيرُ معه صوبَ النَّاقة الأُم التي حَلَّت عُصابة عينيها بفعل تمريغ رأسها بالتُّراب. حرَّرتُها من رباط قوائمها. نهضَت منفعلة تنظرُ إلى صغيرها، تتشمَّمُه وتتحقَّقُ من سلامتِه. تقدَّم إلينا صالح ينحني على العُصابة يرفعُها عن الأرضِ وهو يهزُّ رأسَه يطلِقُ زفرة ارتياح لم تُزِل غضبه:

"لو أنكِ لم تمنعيني!".

لن يفلتَ صالح أبدًا من انتقام النَّاقةِ لو أنها رأت فعلَهُ بصغيرِها، وحمدًا لله أنني سبقته قبل أن يفعل. للإبِل طباعٌ صعبة مثلَ حياتِنا. وفيَّةٌ إن أحبَّت، ولكنها مزاجية، وتغور الإساءة في قلبِها ولا تُسامِح من يسيء إليها. وصالح خير من يعرف ذلك، فلأحدِ أسلافِنا قصةٌ متوارثة، حين أساءَ لبعيرِه صعب المراس، أثقلَ عليه وآذاه في مأكلِه ومَشربِه بعدما شاخ. تربَّصَ له البعيرُ في أحد أسفارِه معه وحيدًا بعيدًا مقطوعًا عن القبيلة، وطارده حتى هربَ جدُّنا الأكبر إلى رأس تلٍّ عالٍ في الصَّحراء. ظلَّ يُراقبُ البعيرَ الهائج في الأسفل يتحرَّى لحظة هدأتِه أو غيابه بعد طول انتظار. أضناهُ العَطَشُ في التَّلِّ الصَّخري، وقرَّرَ النُّزولَ في اليوم الرَّابع. وافاه البعيرُ في الأسفلِ. عضَّه في كتِفِه وبرَكَ فوقه يهرسه.

عاد البعيرُ إلى مضارب القبيلة بعد أيامٍ، ودماءُ صاحبِه على وَبَرِه الأبيض، في صدرِه وبين قائمتيه الأماميتين. نحن من ذُريَّةِ ذاك الرَّجل، ومنه اتَّخذنا اسم فرع

القبيلة؛ المهروس، وعليه صرتُ صالحة آل مهروس. أما ذاك البعير الذي أنهى حياة جدِّنا فقد أسقطَت النَّاسُ اسمه، وصارت تُشير إليه باسم الهارِس مُذ يومِ ذبحِه جزاءَ جُرمِه. هي سُلالة إبلٍ مجنونة، قيلَ إنها من أوبار البعيدة، جنوب الصَّحراء، جِمال أوبار التي تزاوجَ أسلافُها مع جِمال الجِن في الماضي البعيد.

انحنتْ وَضْحَى بعُنُقِها إليَّ، تمسحُ جسدي برأسِها ممتنَّةً وقتَ عدتُ لها بصغيرها. مرَّرتُ كفِّي أُمسِّد وبرَ عُنُقِها أُطمئنُها. كان الوبرُ يعلقُ بين أصابعي وينتشر نُتَفًا في الهواء مثل بذور الهندباء الطائرة وقتَ ينفُخها الصِّغار. هو دأبها كُلَّ ربيعٍ تتخلَّص من وبرٍ اخشَوشن بفعل الشَّمسِ والغُبار، قبل أن ينمو ناعِمًا قُبيل الشِّتاء، كالغيم أبيضَ يعكسُ أشعَّة الشَّمسِ، يهبُها مظهرًا أكثر جاذبية أمام فَحلِها ساري في موسم البرد والتزاوج.

اندسَّ الصَّغيرُ بين قوائمها يُمصمِص ضرعها. نظرتُ إليهما ساهمة وقتَ غافلني الحليبُ وراحَ يدُرُّ من صدري مُبلِّلًا ثوبي. جلستُ أرضًا أُلقم ثديي للصغير. أطلتُ النَّظر إلى وَضْحَى. أحبَّتها أُم دَحَّام بعد أن أطلقَ عليها القومُ لقبَ ناقة صالحة، تقول عسى أن يمنحها الله بركة ناقة صالح النبّي. أُحبُّ أن أتأمل تفاصيلها؛ رشيقةٌ فاتنةٌ مُتماسكة السَّنام، صغيرةُ الرأس مُسطَّحة الهامةِ طويلة الغارِب، مبرومة الفخذين، بيضاء مثل كُريات البَرَدِ فوق الطِّين الدَّاكِن في الشِّتاء، واسعة العينين طويلة الرُّموش على نحوٍ مُدهش. كُلُّ ملمحٍ فيها يشي بأنها من سلالةِ إبلٍ أصيلة؛ وَضْحَى سَليلة الهارِس.

* * *

وُلِدَت وَضْحَى، قبلَ أن تدهمني حيضتي الأولى بثلاثةِ أحوال. أحببتُها لأنها تُشبهني. ماتت أُمّي ساعةَ ولادتي. لفظت نفَسَها الأخير مع أولى شهقاتي، وتكفَّلت عجوز القبيلة الدَّرداء، أُم دَحَّام، بتربيتي. تُجيبني إشارةً إلى السَّماء كُلَّما سألتُ عن أُمّي:

"عند الله".

آمنتُ مُذ صغري أن ما يصيرُ عند الله لا يُدرَك. لطالما تمنيتُ بعد ذلك لو أني وُلِدت قبل أربعة أحوالٍ من يوم مولدي، تتكفَّل أُم صالح زوجة عمّي بالأمر وتُرضعني، لأصبحتُ وصالح أخوين بالرَّضاع لا تصحُّ لنا زيجة، ولربَّما حظيتُ بالزَّواج من دخيل ابن خالي الذي أحببت.

نفَقَت أُم وَضْحَى، مثلَ أُمّي، أثناء ولادةِ بِكرِها أيضًا. أتذكَّر كيف فُجع أبي بنفوق النَّاقة الأُم، وكنتُ أسألني إن كان قد فُجِع بموت أُمّي بالدِّرجة نفسِها وهو الذي له من الزَّوجات، في أقلِّ الحالات، ثلاث. ما الذي يُبكيه لموتِ ناقةٍ وهو يضحكُ، كلَّ عيدٍ، عندما يجبرني على نحرِ شاة؟ يُمسك بيميني التي لا أجيدُ استخدامها، يطبقُ على كفّي المطبقة بالسكّين، يُلقِّنُني: بسمِ الله، الله أكبر. أُغمض عينيَّ وخوار الذَّبيحة يخترق مسمعي ورفساتها تهزُّ جسدي. ينظرُ أبي إليَّ يختضُّ من الضَّحِك على منظر ابنتِه التي يُعاملها مُعاملة الذُّكور، وقد نسيَت البُكاء، في فورة دموعِها، وصارت تُكركر.

كانت المرَّة الأولى التي أرى فيها أبي باكيًا مثلَ طفلٍ مُكرهٍ على قبول أمرٍ لا رادَّ له، لا يُخفي دموعه وهو يعاون ناقته الأثيرة على الولادة الأولى. كان مُشَمَّر السَّاعدين يدُسُّ كفَّه في فرجِها الرَّطِب وقتَ أطلَّت وَضْحَى بَليلةً برأسِها وقائمتيها الأماميتين. وكانت الأُمُّ تُجعجِع وترفس وتؤرجحُ عنقها وتبعر ما في أمعائها، في حين يسيلُ الدَّمُ من فرجِها وهي مُستلقيةً على جانبِها الأيمن، مُستسلمةً لأبي الذي كان يدري أنها تنفُق. لم تخرج وَضْحَى بكامِلِها بعد، بالكاد خرجت حتى منتصفِها وقتَ

أزال أبي الغشاءَ اللزج عن وجهها، وراح ينفُخُ في مِنخَرَيها يُزيل الرَّواسب العالقة فيهما. أحكمَ قبضتيه على قائمتيها الأماميتين يجرُّها خارج ظلمة الجسد تحت أشعة شمس الصَّحراء. لَوَت النَّاقة الأُم عنقها الطويلة كما لو أنها ترجو نظرةً أخيرة إلى بِكرِها، ثُمَّ هبدَ رأسها على التُّراب مبتلًا بدموعِها وزَبدِ مِشفَرِها.

جرَّ أبي وَضْحَى كالنَّافقةِ على التُّراب، وتركها عند رأس الأُمِّ لعلَّها تستفيق من أجل وليدتها الأولى، لم تفق. ارتعشت شفتا أبي وأقعى أمام النَّاقة النَّافقة يُمسك برأسِها ويُسنِد جبينه إلى هامتِها. كزَّ على أسنانِه يرتعشُ باكيًا بصمت.

أمضيتُ أسبوعًا أُرضع وَضْحَى، من لبن نوقٍ أُخريات، قبلَ أن يسمع أبي أن من بين الإبل التي ورثها دخيل عن أبيه ناقةً خَلوجًا، ماتَ عنها حُوارها، سقوطًا في دَحْلٍ عميق بعد أسبوع من ولادته. كان من شأن البَوّ أن يحلَّ المشكل، يُملأ جلدُ الحُوار النَّافق بالقشِّ والصُّوف ويُترك إلى جوار أُمِّه، تشمُّه وتطمئِنُّ إلى وجودِه وتدرُّ الحليب، ولكن من له قُدرة على جلبِ جلدِ الحُوار لصُنعِ البَوّ، والحُوار في عقر الدَّحْل!

أرسلَ والدي صالح ابن أخيه إلى ابن خالي، يطلبُ النَّاقة الخَلوج لتصيرَ أُمًّا لـ وَضْحَى. فرحتُ بعثورِهِم على أُمٍّ لليتيمة، وفرحتُ أكثر لمجيئها يسوقُها دخيل.

في غضون نصفِ نهارٍ لاحَت لنا في البعيد ناقةٌ وإلى جانبيها صالح يمتطي بعيره ودخيل على فَرَسِه. كان ابن خالي قد كبُرَ حَولًا مُذ رأيته وقتَ موت خالي في رحلة الحج وضياع قبره. بدا ناضجًا على مشارف الرُّجولة. جاء يسوقُ ناقتهُ الخَلوج التي ما جفَّت أدمُعُها بعد. قيلَ إنهم يفتقدونها كُلَّ ليلة، ويعثرون عليها صوبَ الدَّحْل، تبركُ عند شفيرِه، وتنوحُ إلى جوارِه تنتظرُ خروجَ صغيرها الذي تهشَّمت عظامه في القاع. لم أترك دخيل يأخذ وَضْحَى وحيدًا وطلبتُ من أبي الذَّهاب معه إلى الدَّحْل القريب. رفضَ صالح أن أذهب بصحبة ابن خالي. رفضَ أبي أيضًا. رُبَّما لأنه لا يريدُ لي أن أشهد ما سوف يتمُّ فعله، ولكن حَسْنى، الشَّابة الحسناء، زوجة أبي الرَّابعة لعبت دور الوسيط لمعرفتها مدى تعلُّقي بـِ وَضْحَى مُذ ولادتها بذاك الظرف، وأنا التي تكفَّلتُ بإرضاعها منذ لحظة ولادتها وعلى مدار أسبوع: "صالحة تشوف نفسها في وَضْحَى"، قالت حَسْنى لأبي تُلين قلبه. وافقَ يهزُّ رأسه صامتًا في حين كان الشَّررُ يتطاير من عيني صالح.

في الصباح الموالي وافتني العجوزُ أَم دَحَّام تنهاني عن الذهاب صُحبة دخيل. أسندت باطن كفِّها المرتعشة على رأسي:

"النَّهار طويل والشَّمس حامية".

عبستُ وأوليت لها وللخيامِ ظهري. سرتُ على مبعدة من ابن خالي الصَّموت وناقة أبيه النائحة، نُيمِّمُ وجهينا شطرَ الدَّحْل. شدَّد عليَّ دخيل ألا أقترب لئلا ألفِت انتباه النَّاقة إلى وجود وَضْحَى وراءها. لم يكن ينظر إليَّ وهو يُحدِّثني. كان يُطرِق ويُطيل النظر إلى كفِّي وقتَ يتكلم. مضى في السَّير، وأنا أتبعهما وأرقبهُما من بعيد، دخيل والخَلوج، وأنا ووَضْحَى نسير وراءهما على مهل. أُحدِّق بابنِ خالي، رجلٌ في سِنِّ الصِّبا، يُعلِّق مِزوَدَته على كتِفِه ويحملُ رَبابته على ظهره، يمشي دونما التفاتٍ في فضاءٍ يَخبَرُه كما يَخبَر راحة يدِه، في صحراءٍ يعرفُ كُلَّ دروبِها إلا دربًا يؤدي إلى قبرِ أبيه.

يحنو دخيل على النَّاقةِ ويُلاطِفها ريثما تكفُّ عن نُواحَها، يحدوها غناءً بصوتٍ تخشعُ له البرِّية. وكما لو أن الأرض كانت قفرًا، لم تلتفت النَّاقة الثَّكلى إلى الخضرة التي تمتدُّ إلى ما لا نهايةٍ حَولها، وقد التحفت الأرضُ بالرَّمث والعَرفَج والعَلَندة والثُّمام وكُلِّ نبتات الرَّبيع. سارت طيلة الدَّرب ولم تقف لتعتلِف شيئًا قط. راحت تُسرع في المسير مُعاودةً البُكاء ما إن تعامدت الشَّمس فوق رؤوسنا، فعرفتُ أن الدَّحْلَ قد صارَ قريبًا، ثُمَّ خبَّت الخَلوجُ تسبقُ دخيل ونثار طين أخفافِها وراءها. ألقت بجسدِها تبركُ إلى جوار الدَّحْلِ، واستحالَ بكاؤها نواحًا وهي تميلُ بعُنُقِها يمينًا وشمالًا مثلَ ثكلى نادِبة. التفتَ إليَّ دخيل يُشير آمرًا بعدم الاقتراب، ثُمّ راحَ يُعالج الأمرَ بخبرةِ العارف. أخرج حبلًا ووتدًا ملفوفًا بخرقةٍ جلديةٍ من مِزوَدَتِه. أقعى وراء النَّاقةِ يربطُ قوائمها بإحكام، ثُمَّ قام برفع ذيلها وحشر الوتد في مؤخِّرتها بقسوةٍ قاصِدًا إيلامها بحبس الهواء في بطنها، يُذكِّرها بأوجاع الولادة، ثُمَّ ربط ذيلَها إلى إحدى قائمتيها الخلفيتين، فوق الوتد المحشور، كيلا تلفظُه خارج جوفِها. كنتُ أتوجَّعُ لوجعِ النَّاقةِ، ولكن ما وراء ذاك الوجع حياة أفضل للخَلوجِ ووَضْحَى اليتيمة، وهذا ما ألجمني. أخرجَ دخيل خرقة قماشٍ من مزودتِه وراحَ يُحكم ربطه على منخريّ النَّاقة التي تميِّزُ حوارها من رائحته، وتركها على حالها تلك إلى جوارِ الدَّحْل تُوَلوِل وتسحُّ أدمُعَها على التُّراب، لا تكفُّ عن تحريكِ عنقها مثل أفعى تناورُ عقربًا عند جُحرِه، تفتحُ فكَّيها على اتِّساعِهما تُنادي حُوارها. أقفلَ دخيل إلى حيث أجلسُ بعيدًا مع

وَضْحَى. تربَّع إلى جوارنا على الأرض الخضراء، دسَّ كفَّه في مِزوَدَتِه وأخرجها مبسوطةً وفيها تمرات ثلاث. لم يُبعِد عينيه عن كفِّي اليُمنى وقتَ أمسكتُ بالتَّمرتين بشمالي.

"يبدو أن في هذه المزودةِ كُلَّ شيء"، قلتُ له.

ابتسم قبل أن يُجيب:

"هي بيتي".

بسببه، فيما بعد، صرتُ أحملُ مزودةً من القماش، أشيلُها معي أينما حللت، أضع فيها مكحلتي ومشطي الخشبي وطحين الحِنَّاء والحُلِّي والقهوة المرَّة والتَّمر وأقراص اللبن المجفَّف.

هرستُ تمرةً بعد نزع نواتها من أجلِ وَضْحَى، فهي غير قادرة على جرش النُّواة بعد، ثُمَّ التقمتُ تمرتي أنظرُ إلى دخيل شارد الذِّهن مع الخَلوج البعيدة تصيح عند فُوَّهة الدَّحْل، ويتردَّد صدى صيحاتها مكتومًا. يعجبني في دخيل شكله، إلى جانب معرفتِه بكل شيء كما لو أنه شيخٌ حكيمٌ رغم أنه لم يجاوز الخامسة عشرة. لبِسَ الغترة والعِقال في سِنٍّ صغيرة. أُحِبُّ فيه عينيه الدَّعجاوين الكحيلتين تحت حاجبين معقودين أبدًا. حاجبين مرسومين بعنايةٍ أحدُهُما يحملُ أثر جرحٍ عمره خمس سنوات، نُدبة في وجه دخيل تُذكرني بـِ صالح، يومَ تركها تذكارًا لِـ دخيل، خطًّا يخلو من الشَّعر يفرُق الحاجب. أُحبُّ شاربه النَّابت حديثًا، ناعمًا مثلَ زغب أفراخ الصِّرد الرَّمادي، وجديلتيه الطويلتين اللتين تبُزَّان جديلتيَّ طولًا، وهُما تتسلَّلان من غُترته المثبَّتة بعِقالِه المائل يمينًا. صموتٌ بعكس صالح الثَّرثار المتباهي ببطولاتِه الوهمية. أحبُّ فيه كلَّ شيءٍ إلا صمته هذا، وميل عِقاله، ونظره الذي لا يصوِّبه إلى وجهي، يخفضُ بصره وقتَ أتحدَّث إليه، ويُطيل النظرَ إلى كفِّي.

أمسكَ دخيل برَبابتِه بعدما صارت التمرة في جوفِه. وضعها بين رُكبتيه وأغمضَ عينيه بعدما استلَّ زفيرًا طويلًا، ولكنني قبل أن يشدو بكلمةٍ سألته:

"من أين لك؟".

فتحَ عينيه ينظرُ إلى عينيَّ على الرَّبابةِ. لم يُطل النظر إلى وجهي. لعلّها المرَّة الأولى التي ينظر فيها إلى عينيّ. أطرقَ ينظرُ إلى آلتِه:

"صنعتُها".

"برِبّك؟!"، سألتُه.

مرَّرَ أصابعه على ربابتِه:

"أعوادُ خشب وجلد حُوار وساق خيزران وشعرات من ذيل فَرَس".

ابتسم من دون أن يرفع رأسه عن رَبابتِه.

"تُعجبك؟".

كنتُ أحملقُ في وجهه في حين هو لا يفعل.

"وَضْحَى تُحِبُّ صوتَها إذا ما غنَّيت أنت".

انتشرت الحُمرة في وجهه، ولا أدري لِمَ خجلتُ من الاعتراف بإعجابي بصوتِه. قطَّبَ حاجبيه يُرَدِّدُ قولًا قديمًا:

"يا بِنت لا يعجبك صوت الرّبابة.. تراه جلد حوَيّرٍ فوق عيدان".

أغمضَ عينيه ثانيةً. مرَّرَ القوسَ على وترِ الرَّبابة الوحيد، ينثرُ لحنًا شجيًّا. يصدحُ بآهاتٍ حرَّى، وكلماتٍ آسيةٍ تكشفُ لوعته على ضياعِ قبر أبيه. يقول في أغنيته إنه لن يولي أمر حَفرِ قبره للآخرين، سوف يسبق الموتَ يومًا، يحفرُ قبره بيديه عندما يشيخ، ثُمَّ يحزُّ عنقه وهو مستلقٍ في جوفِه. أثارت الصُّورة فزعي وأعجبتني في الوقت ذاتِه، وهو يهزُّ رأسه يُسافر في غنائِه. كادَ عِقاله المائل أن يسقط لولا أني أمسكتُ به أُعيد تثبيته على رأسِه. فتحَ عينيه يتلفَّتُ حوله، كما لو أنه قد عاد للتوّ من مكان بعيد. ابتسم، ولم يُمِل العِقالَ فخرًا على دأبِه، كأنه حينما يكون معي ينسى من يكون.

سألته:

"هل أنتَ جادٌّ في نية حفر القبر وحزِّ العُنُق؟".

ابتسم في غمامة حزنٍ على مُحيَّاه:

"أقولُ في غنائي ما لا أستطيع فعله".

تفكَّرتُ في أمر حزِّ العُنُق، تبدو فكرة جيدة أن يختار المرء أوان موتِه. بدَت النَّاقة المقيَّدةُ مُنزعجة بعد سويعات، وقد نفخَ الهواءُ بطنها بفعلِ الوتد المحشور في مؤخِّرتها. صارَت تتوجَّعُ وتُصدر أصواتَ وجعٍ غير نواحِها على فقيدِها. نهضَ دخيل من الأرضِ باسِمًا وقد حُلَّت عُقدَتا حاجبيه على غير عادة، يطلبني أن أتبعهُ بـِ وَضْحَى ما إن يصلَ إلى النَّاقة ويشغلها عن النظر إلى الوراء. كنتُ أنظر له بدهشتي، كيف لهذا الفتى الذي يكبرني بأربعة أعوامٍ فقط أن يعرف كُلَّ شيءٍ عن كُلِّ شيء؟ تعلمتُ منه الأشياء والأسماء، أسماء الرِّيح والزَّرع والنُّجوم، ولو أنه مكثَ في الدِّيار مُدَّة أطول؛ لَخَبَرتُ عِلمَ كُلِّ شيءٍ ما لم يكُن عند الله.

أشار لي برأسِه أن أجيء وهو ممسكٌ برأسِ الخَلوجِ يمنعُ التفاتها إلينا أنا وَوَضْحَى. رمى إليَّ حبلًا أطوِّق به قوائم ناقتي الصَّغيرة، وأمرني أن أُلقيها على جانبها وراء الخَلوج كما لو أنها قد وُلِدَت للتوّ. التقفتُ الحبلَ مُتلكئةً أُنقِّل بصري بينه وبين ناقتي الصَّغيرة التي جزعت وصارت تبتعد مُرتابة. صاحَ بي:

"لا تُفكِّري!".

نظرتُ إليه كالبلهاء. أردفَ:

"التفكير تأخير".

أسرعتُ بطرحِ وَضْحَى أرضًا وأقعيتُ فوقها، وما طرحتُ كلمته عن ذاكرتي قط: لا تُفكِّري.. لا تُفكِّري.. التفكير تأخير. كان دخيل يرمقني واسع الابتسامة وأنا أُطوِّق قوائم وَضْحَى بذراعيَّ وأطرحُها أرضًا. ما زلتُ كما خبَرني صالحة طارحة النُّوق، لن يشقَّ عليَّ طرح وَضْحَى حديثة الولادة.

ولما بدا أن أوجاع النَّاقة الخَلوج قد بلغت مبلغًا لا يحتملُه صبرها، سحبَ دخيل وَضْحَى الطَّريحة من وراء الخَلوج، كما لو أنها وُلِدَت للتوّ، وتركها بقيودِها أمامَ النَّاقةِ لسويعاتٍ أُخرى أمضيناها في المراقبة من البعيد. دخيل يُراقبهما، وأنا أُراقبه وهو ينظرُ إليهما مُخزِّرًا عينيه. بدَت النَّاقة غير واثقةٍ في البدء، تُحاول أن تتشمَّم وَضْحَى تتعرَّف إليها، ولكن خرقة القماش كانت مُحكمة الرَّبط على منخريها. راحت تنظرُ إلى الصَّغيرة بغير مشاعر تتفحَّصها. حملَ دخيل رَبابته وأغمضَ عينيه يشدو بأغنية أُخرى. هدأت الخَلوجُ أخيرًا رغم أن الوتد ما زال في مؤخرتِها. تقدَّمَ دخيل صوبَ وَضْحَى الرَّابضة على جانِبِها أمامَ النَّاقةِ بلا حراك، وكأنه ينوي إيذاءها، يحثو عليها التُّرابَ ويصدرُ أصواتًا مجنونة ويُحرّك يديه كما لو أنه يؤذيها، ولما راحت وَضْحَى تُرغي من الخوف انتفضت النَّاقةُ تُجعجع غاضبةً تُحاول النُّهوضَ والذَّودَ عن الصَّغيرة، ولكنها أخفقت بسبب قيود قوائِمِها فازدادت جعجعتُها. فرِحَ دخيل لردِّ فعلها وتجاوبها، وأثابها بتحريرها وفكِّ الرِّباط من منخريها وإخراج الوتد من مؤخِّرتها، في حين كنت أحرِّرُ اليتيمة المذعورة. وما إن استقامت الاثنتان حتى اخفضت النَّاقةُ رأسها تُمسِّد جسد وَضْحَى. وفيما كان دخيل يضحك لنجاح عملِه كنتُ أبكي إزاء مشهد وَضحائي وهي تلوذُ بين قوائم أُمِّها الجديدة ترضعُ من ضرعِها. ما عرفتُ لبكائي سببًا بين حُبورٍ وشعورٍ بالتَّخلي. تملَّكتني غيرة شديدة من النَّاقةِ الخَلوج، كيف تجرؤ؟ ماذا لو أني أخذتُ صغيرَها قبل سقوطِه في الدَّحْل؟ كيف تشعُر؟ بدَّد دخيل أفكاري وقتما أخرجَ وعاءً من مزودتِه ومدَّهُ إليَّ يبتسم. انحنيت تحت النَّاقة إلى جوار وَضْحَى أشخبُ حليبَها. ملأتُ الوعاء. رفض الشُّربَ قبل أن أفعل. طابَ لي طعمُ الحليبِ المنكَّه بزهور الرَّبيع التي اعتلفتها النَّاقة. مددتُ الوعاءَ إلى دخيل. شربَ قبل أن يضحك وهو يُعيده إليَّ بكلتا يديه، من دون أن يرفع رأسه، ورغوة الحليب تُغطي شفته العُليا وشاربه النَّابت:

"صرتِ تُجيدين الحَلب أخيرًا!".

أدار لي ظهره وقتَ التهمني خجلٌ غير مألوف. نفضتُ رأسي أطردُ ذكرى سنواتٍ سِتٍّ مضت، يومَ أمسك بساعِدي أوَّل مرَّة في مرعى الشِّياه الغبية.

"لا تذكِّرني، كنت طفلة"، قلت له.

دوَّت ضحكته في الفضاء، وأنا أنظرُ إليه من وراء ظهره ساهمة. يهتزُّ كتفاه

من شِدَّة الضحك. كنتُ سأغضب لو أني لم أَغرم به، أو أني لم أكن غبيَّة ذات يوم يستدعي ضحك دخيل اليوم. كنت سأصرخ به أن يكفَّ سخريته لو لم يكن صوته مدعاةَ رعشةٍ في قلبي.

سرنا إلى القبيلة من دون أن تلتفتَ النَّاقةُ وراءها إلى الدَّحْل، وكنتُ أخشى ساعة رحيل دخيل إلى قبيلتِه مع النَّاقة ووَضْحَى، لأن اليتيمة للخَلوج:

"ألا تترك النَّاقة؟".

"يهون عليّ ذبحها لو راحت لغيري"، ردَّ في الحال.

تسارعَ وجيبُ قلبي ولم أفُه بكلمة. دخيل يُحبُّني، آمنتُ بحدسي.

كانت فرحة أبي كبيرة لما لُحنا له في البعيد؛ دخيل وأنا ووراءنا النَّاقةُ تسيرُ جنبًا إلى جنب مع اليتيمة التي ما عادت. رحلَ دخيل، مُتنازلًا عن الخلوج لليتيمة، وترك كلتيهما لي. عاد إلى قبيلتِه وحيدًا يحملُ رَبابته على ظهره، وأنا مُذ يومِ الدَّحْل ما فتئتُ أفكِّر في قولِه عن ذبحِ النَّاقة لو راحت لغيره.

مُذ ذاك اليوم وابن عمِّي يُعادي ابنَ خالي علانية. غادرَ دخيل على ظهرِ فَرَسِه إلى الغربِ ساعةَ الغروب. ولم أره بعدها ولا لِمامًا. نسيتُ كلَّ كلماته القليلة، وبقيت بضع كلماتٍ ما نسيتُها مُنذ يومِ الدَّحْل ذاك، لحظةَ ودَّعني مُطرِقًا يُطيل النظرَ إلى كفَّيَّ على دأبِه. لم يرفع رأسه وهو يُحدثني باشًّا فاكًّا عُقدة حاجبيه. يقولُ إنه كشفَ سرَّ اختلاف نقوش الحِنَّاء بين كفَّي. أطلتُ النظرَ إليه صامتةً علَّهُ ينظر إلى عينيّ. لم يفعل. استطرد بأنه يسمع زوجة خالي، أمَّه، تكيلُ المدائح إلى إتقاني النَّقش. أبرع ناقِشة حِنَّاء في القبيلة. كلُّ العرائس يجلسنَ أرضًا، أمام الطفلة ناقِشة الحِنَّاء، يبسطنَ لها كفوفهنَّ قبل ليلة الزِّفاف، تنقشُ لهنَّ بتلاتِ أزهار وأوراقَ نباتٍ ونجومًا.

"أنتِ عَسراء"، قالَ وهو لا يزال ينظرُ إلى كفِّي.

لم أُجبهُ. ظننتُ خائبةً أن صمتي سوف يدفعه للنظر إلى وجهي. لم يفعل. أردفَ:

"أنتِ لا تُجيدين صُنعَ شيءٍ بيدك اليُمنى، نقَشتِها بالحِنَّاءِ تلك النُّقوشَ الباهرة، وتركتِ كفِّكِ اليُسرى لفتاةٍ أُخرى تنقُشُها هذا النَّقشَ الرَّديء".

لا أُخطئ حينما أقول إنه يعرفُ كُلَّ شيءٍ عن كُلِّ شيء. كان على صواب، أنا لا أُجيد شيئًا بيدي اليُمنى إلا الذَّبح، مُذ علَّمني أبي، مثل الأولاد، ذبح الخرافِ صبيحة عيد الأضحى. لم أُحِر جوابًا لِـ دخيل أنتظرُ منه التفاتة، التفاتة واحدة تلتقي فيها أعيننا طويلًا، لكنه لم يفعل، كما لو أنني غير مرئية. عقدَ حاجبيه وابتسم. جمعَ الابتسامة وتقطيبة الحاجِب بشكلٍ لا يساعد على التكهُّن بما سوفَ يقول.

"أُحِبُّ نقشَ الحِنَّاء في كفِّكِ اليُمنى".

قالها قبل أن أسأله:

"هل نلتقي؟".

التفتَ إلى وَضْحَى يدريني مُغرمة بها:

"في عيون الإبل".

لم أفهمه، كما لا أفهم كثيرًا من قليلِ كلامِه. أولاني ظهره يسيرُ نحوَ فرسِه. حثثتُ الخطوَ أسبقه. وقفتُ أمامه:

"وفي غير عيون الإبل، هل نلتقي؟".

أجابني كأنه لم يُجِب:

"العِلم عند الله".

رحلَ بعد قولِ كلماتٍ أخيرة، لم يغرس بها يأسًا في النَّفس، وهذا أمرٌ جيِّد. ركبَ فَرَسه وغادر، دونما غرسٍ بذرة أمل، وهذا أمرٌ سيء. أطلقتُ بصري وراء دخيل على فرسِه. رفعتُ رأسي إلى السَّماءِ الدَّكناء وأنا أستعيدُ رجعَ إجابته الأخيرة. مارَت بي الأرضُ ودارت. أغمضتُ عينيَّ على الشَّمس في أُفولِها، وفتحتهُما على وجه أُم دَحَّام الذي يُشبه أرضًا حفرت فيه الشَّمس أخاديد اليباس. سقتني ومسحت

العرقَ في جبيني، ثُمَّ قرَّبت وجهها إلي وجهي وانفرجت شفتاها الدَّقيقتان عن فمها الأدْرَد. وأنا أطفو بين يقظة وإغماء، أُبصر في وجهها صحراء يابسة ودَحلًا عميقًا يفوحُ منه ضوع الهالِ والقرنفل. همَسَت أُم دَحَّام بصوتِها شبيه الثُّغاء:

"ما فاد في الشَّمس عناد".

كنتُ أهذي. أتذكَّرُ أشياء، وأشياء لا أتذكَّرها. قلتُ لها وأنا أمسح بواقي الماء من شفتَي:

"دخيل يُحِبُّ نقوشَ الحِنَّاء في يميني".

صفعتني. بدَّدَت هذياني. لم تكُن صفعةَ إيقاظ.. أو رُبَّما كانت. أولتني ظهرها زاجرة:

"غبية!".

اقتربَ مني صالح ذاك النَّهار يُحدِّق في عينيّ. يسألني ماذا دار بيني وبين دخيل قبلَ ركوبِه الفَرَس. لم أُخفِ حديثنا. أخبرته أني سألت ابن خالي إن كُنَّا سنلتقي أم لا. سألني صالح بنزَقِ مَن أدرك مشارف الرُّجولة:

"وهل تلتقيان؟".

أخبرته بإجابة دخيل المقيتة. إجابة عالقةٌ بين سماءٍ وأرض. خزَّرَ صالح عينيه ينظرُ إلى السَّماء، ثُمَّ هبطَ بنظرِه يُمليه في عينيّ حتى كُسِر شيءٌ في داخلِه. لا أدري ما الذي رآه، وهل أبصرَ فيهما الحُب، وهل لي أن أُدرِكَ الحُبَّ وأنا طفلةٌ لم أبلغ حيضتي الأولى بعد؟ لا أدري شيئًا، ولا أتذكَّر إلا نظرة صالح ذاك النَّهار، وقتَ أغمضها عن عينيَّ، وفتحها على غربٍ اختفت فيه فَرَسُ دخيل. الغرب الذي جاء بـِ فالح بعد ثلاث سنوات غاضبًا يتوعَّد دخيل بالقتل، ردَّدَ أبيات غزلٍ بي وهجاءً لأبيه شيخ القبيلة، عمِّي أبي صالح، كان فالح قد سمع البعضَ يتداولها نقلًا عن دخيل قبل أن يُرسل أُمَّه تطلبني للزَّواج:

"فعلها الخسيسُ ولم يُراع صِلة دَم!".

كان هِجاؤه لعمِّي قاسيًّا، ولكن أبيات غزلِه كانت من قلبٍ ولهان، أنستني كُلَّ شيءٍ إلا غرابة الفِعل؛ لِمَ يهجو عمِّي ثُمَّ يُرسل أُمَّه تطلبُ يدي؟

* * *

أنهيتُ إرضاع الصَّغير الغافي بين يدي، وقتَ راحت وَضْحَى وساري وصغيرهما يعتلفون من نتفِ خير الرَّبيع. في كُلِّ مرَّةٍ أنظرُ إلى الثَّلاثة في الموضع الأثير، عندَ الشِّعاب، كنتُ أتحسَّرُ في نفسي، وأتخيلني ودخيل وصغيرنا ننعم بخيرات أطيب المواسم وأكثرُها بركة في محلِّ الإقامة الذي أُحِب، قبل أن نُقفِلَ إلى خيمتنا، أتربَّعُ في أحد أركانها أُنصِت إلى غنائه على الرَّبابة.

لا أشكُّ للحظة أن للإبل عقلًا كما عقل البشر، فهي تُدهشني بذكائها، يكفي المرءُ نظرًا إلى عينيها، بين أهدابها الطويلة الكثَّة، ليُدرك ما يقوله هذا المخلوق صمتًا يمنحه مهابة، بعكس الشِّياه الغبية. قيلَ إن الجِمال خُلِقَت شأن الجِّن والشياطين من نار، أكدَّ النَّبيُّ ذلك في دعوته إلى النظرِ في عيونِها وهِبابِها إذا ما نَفَرَت. أنا أُحبُّ عيونها، ولكني لا أُبصر فيها إلا الموت. صرتُ أهيمُ فيها مُذ رهنَ دخيل لقاءنا المقبل في عيون الإبل.

لو أن للإبل لسانًا ناطقًا، لسألتُ وَضْحَى عن ساري، أتُراها تُحِبُّه؟ أم أنها مجبورة أن تحتمل من أجل صغيرهما؟ وهل يستحق الصَّغيرُ صبرها؟ ماذا لو أن صغيرها ليس من صُلب ساري؟ ألم تجفل من زوجها في لقائهِما الأوَّل قبل حَولَين؟ كانَ شتاءً قارسًا، وكان من الخطورة الاقتراب من ساري في فورة هيجانِه واشتهائه لأُنثى. يرقصُ حولَ نفسِه مُختالًا، يُطلِق من فمِه ريحًا أكثر زَنَخًا من جُحر ظربان، يجذبُ إليه الإناث الشَّبِقات.

كنتُ أنظر إليه محتجبةً بخيمتي، يختالُ بفحولتِه ينثرُ بوله بتحريكِ ذيلِه ويُرغي ويزبد ويكزُّ على أسنانِه. لم أنتبه قط إلى جنون ذكور الإبل قبل زواجي، ولكنني بعد الزَّواج صرتُ أولي أمرها اهتمامًا، أُراقبها لعلِّي عند فهمِها أفهم صالحًا.

في ذاك الشِّتاء، بدَت وَضْحَى مُستثارة شَبِقةً على نحوٍ نَهِم. بَرَكت على الأرض بين نباتات المطر، تتمرَّغُ بالتُّراب، تُباعد ما بين ساقَيها الخلفيتين، تتبوَّل وتُحرِّك ذيلَها كاشفةً عمَّا يرومه الفحلُ الثَّائر. كنتُ أرى فيهما ليلتي الأولى مع صالح

في خيمة الزَّوجية. أتذكَّر الوجع سكِّينًا تغوص في أحشائي، ولزوجة عَرَقِه على ظهري، وريح أنفاسِه الحارَّة وراء أُذني. لا شيء غير لحظاتٍ موجعة أنتظرُ انتهاءها قبل ارتفاع شخير صالح. لم أُدرك يومًا ما تحكي عنه النِّساءُ من لذَّةٍ يرتعشُ لها الجسد، ولم أفلح في تعلُّم دروسِ حَسْنى حولَ الفِراش قُبيل ليلتي الأولى. حَسْنى المغناج شيطانة الفِراش، مُلهِمة نِساء القبيلة، تُلقِّنهنَّ أصول المضاجعة، وتُخرسهنَّ وقتَ يبدأن حديثًا عن أسرار ليلاتهنَّ وتفاصيلها. أُحِبُّ في حَسْنى صمتها عن التفاصيل، لأنها لا تكشفُ لي أبي في صورةٍ لا أُحبُّها.

أتذكر كيف اقتربَ ساري من وَضْحَى الرَّابضةِ ذاكَ الشِّتاء. يُحرِّك ذيله وتظهر من تحتِه خصيتاه الضَّخمتان، واحدةٌ تكبرُ الأُخرى. برَكَ بثُقلِه فوقها، يعضُّ على عُنُقِها مثلَ صالح تمامًا. يعلو ويهبط في حين لا قُدرةَ للنَّاقة على فعلِ شيءٍ عدا الرُّغاء بصوتٍ عال. صوت اللذَّة التي لا أعرفها، أو الألم الذي كنتُ أكتمُ صوته وأنا أعضُ باطنَ ساعِدي، حتى استحالت آثارُ أسناني مثل وُشومِ الإبل في يدي. هل كنتُ آثمةً بإقحامِ دخيل في خيالاتي؟ يُلاطفني، ويحنو عليَّ مثلَ رَبابتِه خشية انقطاعِ وترها الوحيد. وحدُها أُم دَحَّام تدري بآثامِ خيالي. تلومني على عدم نقشِ كفَّيّ نكايةً بصالح وفاءً لِـ دخيل. أُحدِّق في عينيها أُجيب:

"ما نقشتها يوم عرسي".

ثُفلت ضحكة تهكُّمٍ من أنفِها:

"غدًا تُرزقين بمولودٍ يُنسيك".

أكزُّ على أسناني أُجيبُها:

"أذبحه!".

تلومُني العجوزُ على تعلُّقي بأمسِ دخيل من دون أن تُسميه، تهزُّ رأسها آسِفة وهي تقول إن من يشيلَ الأمسَ على ظهره، تغوصُ قَدَماه في اليوم، ولا يُدرك الغَد. لكن، ما جدوى إدراك غدٍ يخلو من دخيل؟

صالح لا يقسو عليَّ إلا بعدما يملأُ عينيه من عينّي، يُشاهد فيهما خصيمه،

ولسوءِ الحَظ، هو طيلة الوقتِ يفعل! كان يُلاطفني وقتَ يحسبني نائمة، وكثيرًا ما كنتُ أفتعلُ النَّومَ لعلِّي أفهمه. أشعرُ بأنفاسِه مُتهدِّجةً قريبةً إلى وجهي. أستشعره في ظلام الليالي المقمرة، يُطيل النَّظر في ملامحي يستنطقُها. يُمرِّر طرفَ إصبعِه بلينٍ على شفتي ينثرُ فيهما الخدَر. يُمسِّد على شعري برفق. يُلامس جسدي بكفٍّ حانيةٍ لا أعرفُها ساعاتِ النَّهار. تتسارع أنفاسُه ويغَمغِم في حزن. وإذا ما انتبه إلى صَحْوي صدَّ عني بوجهٍ ساخِط. صالح يُحِبُّني ولا يرغبُ بأذيَّتي، ولا دافع لقسوتِه معي إلا جبر كسرِه بكسرٍ نِدِّه في نفسي. ذاك النِّدُّ الذي يُبصره في عينيّ، مُنذ ليلتنا الأولى في خيمة الزوجية، وقتَ خابَ رجاؤه بنيلِ قطراتِ دمٍ تتوّج ليلة الزِّفاف.

جثا عندَ فرجة الخيمة يضمُّ رأسه بين يديه: "لم يُراعِ حُرمة"، قال بحسرة. هو يدري أني لم أُقابل دخيل مُذ يوم الدَّحل قبل سنواتٍ ثلاث، ويدري أن شيئًا بيني وبين ابن خالي لم يحدث، ولكن الشَّك قد وافقَ ضعفه، وكنت خرساء عن دفعِ التُّهمة أتعمَّدُ إيذاءه.

كان يضربُ الأرضَ بقدمِه، ويدور حولَ نفسِه مثلَ بعيرٍ عاثَ القُراد فسادًا في وبره، وأنا أُحملِق فيه تطيبُ لي أنَّاتُه لولا أن داهمتني كلمات دخيل: "يهون عليّ ذبحها لو راحت إلى غيري". خِلتُه يذبحُني، يجُرُّني من شعري إلى خارج الخيمةِ، ينحرني أو يرميني ببندقيتِه، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. اكتفى يُحملق في عيني مليًّا وقتَ يُعاشرني قاصِدًا إيذائي.

ادخلتُ ولدي فراشه، وأعددتُ الطَّعام لِـ صالح الذي لم يأكل من اللحمِ المقدَّدِ والرُّزِّ والكَمَأ إلا لُقمتين. لا يُعجبه صنيعي أبدا. نفضَ يده الملطَّخة بالسَّمن يزجُرني: "بَحر!". تذوقتُ الطَّعام، لم أجدهُ مالحًا كما يدَّعي، وهو الذي لا يعرفُ البحرَ إلا في آياتِ القرآن، وأحاديث أصحاب القوافل العائدة من مُدن الخليج، حول ماءٍ أُجاجٍ أزرق، لا قُدرة لغير الإبل على شُربِه.

أقعى صالح تحتَ وَضْحَى يشخبُ حليبَها وقتَ تناهى إلى أسماعنا هَميس أخفافٍ مُسرعة. جاء فالح على ظهر ناقتِه السَّبوق يزفُّ البشارة إلى شقيقِه الأكبر؛ قال إن قوَّات أمير الكويت وحلفائه يُبلون بلاءً حسنًا متغلغلين في مُدُن نجد، وإنهم قد استولوا على الزِّلفي وبريدة وعنيزة، في حين سَلَّمَت الرِّياض لابن سعود من دون قتال. عقد فالح حاجبيه وهو يلتفتُ إليَّ نصفَ التفاتةٍ قبل أن يستأنف حديثه لِـ صالح:

"جاءنا رسول بن صُباح يطلبكَ بالاسم على رأس الهجَّانة لمعركةٍ وشيكة".

انحنى فالح من فوق ناقتِه يوشوشُ لـ صالح. داهمني قلقٌ إزاء نظرات الاثنين إليّ.

أطلقت ناقةُ فالح سيقانها للريحِ في حين طوَّقنا الصَّمتُ أنا وصالح، ينظرُ واحدنا إلى الآخر. دخلَ الخيمة يحملُ بندقيته الإنكليزية ومضى صوبَ ساري يُبرِكه ويُجهِّزه للرَّحيل. سألت صالحًا:

"بماذا همسَ أخوك؟".

لم يلتفت إليَّ وهو مُقعٍ يُثبِّت الرَّحْلَ على بعيرِه. أجاب:

"رجال ابن صُباح يتأهبون لملاقاة ابن رشيد في الصّريف".

أفلتُّ شهقة:

"أخوالي!".

تبادرَ إلى ذهني دخيل، هل تُقاتل قبيلتي قبيلته؟ وهل يُقاتل ابنُ عمِّي ابنَ خالي؟! أدارَ صالح وجهه ينظرُ إليَّ من وراء كتفِه.

"الخال خليّ والعَم وليّ".

نهضَ وتقدَّم إليَّ يُخرج من نِطاقِه الجلدي خِنجره:

"الله يسامحك ولا يسامحه".

أمسكَ بكفِّي. وضعَ فيها الخنجر وثَنى أصابعي عليه وهو يُملي النَّظرَ في عينيّ:

"كنتُ أتوق لسفكِ دمك.. ولكن دمك، من الأول، ما كان لي".

لم أفُه بكلمةٍ وهو يحملُ صغيري يضمُّه إلى صدرِه. وأنا أضمُّ خِنجره إلى

صدري. امتطى ساريَ الذي نهضَ واستقامَ على قوائمه شامخًا، كما لو أنه يدري بانضمامِه إلى رؤوس صفوف الهجَّانة. أحكمَ صالح لفَّ لِثامِه ثُمَّ صاحَ بي آمرًا ألا أبرحَ مكاني لحين عودته. صحتُ به:

"متى تعود؟".

لاذَ بصمتِه وهو يتهيأ للعودة إلى القبيلة ليتزوَّد بالذَّخيرة. أطالَ النَّظر إليَّ من وراء لِثامِه بعينين حمراوين خضَّلهما الدَّمع. تهدَّج صوته يكتمُ عَبرةً مريرة. حدَّقَ في عينيَّ مليًّا قبل أن يُعيد إجابةً أحفظها:

"العِلم عند الله".

* * *

حجَّرَني صالح نهارَ رحيل ابن خالي يومَ الدَّحْل. قرَّرَ عمِّي ووافقه أبي على الفور. صالحة لـ صالح. تَم يا طويل العُمر. ما أخفيتُ حفيظتي ولا ادَّخرتُ شتيمتي وقتَ التقيتُ صالح عند مرعى الغَنَم: "يلعن أبوك!"، ثُمَّ ركضتُ ألوذُ بالخيمةِ أضمُّ ركبتيَّ إلى صدري، وأُسنِد إليهِما جبيني وأُطبق أُذنَي. ولكن الزَّواجُ صارَ في الرَّبيع، بعد ثلاثة أحوال وأنا ابنة رابعة عشر.

حملتُ الحِنَّاء في مزودتي من أجلِ نقشِ كُفوف الأُخريات، وقاطعتُ نقشَ الحِنَّاء على كفِّي اليُمنى مُذ ذاكَ اليوم. صرتُ أكره مُجالسة نساء أبي وعجائز القبيلة في الخيمة، وقد استحالت كُلُّ أحاديثهنَّ لي حول صالح تنخرُ رأسي وتُزعجني مثلَ القملِ في جلدة الرأس. وما انفكَّت حَسْنى تناكفني بما أخجلُ من سماعِه من أحاديث الفِراش، وعن صالح الذي سوف يرى فيَّ مالا أستطيع رؤيته، توضِّحُ وهي تُرقِّص حاجبيها إزاء عدم فهمي:

"حبَّات الخالِ في ظهرك".

أفتِّشُ في الحُجج كُلَّ مرَّةٍ كيلا أمكثُ معهنَّ في الخيمة، ولكن أُم دَحَّام ما انفكَّت تورطني بنقش الحِنَّاء في كفوفِ البنات، كي تُجبرني على البقاء في مجلس النِّساء والإنصات إلى التَّوصيات، حتى بعدما نقشتُ كفوفَ كُلِّ بُنيَّات القبيلة ونسائها أسندَت كفَّها المرتعشة إلى ركبتي:

"اِنقشي".

وفيما كنتُ أنقشُ لها بتلات زهور مسحَت ظاهرَ كفِّها، ثُمَّ أسندَتها إلى ركبتي ثانية. انفرجَت شفتاها عن لُثَّةٍ فارغة من الأسنان، وقالت بصوت النَّعجة:

"هذي النَّقشة للصّغيرات الحلوات مثلك".

فتحت عينيها على اتساعهما تُردف:

"أنا عجوز.. اِنقشي لي الشَّمس".

وفيما كنت أنقشُ على ظهر كفِّها المتغضِّنة شَمسًا، كانت تُمطرني بالنَّصائح كي أُناسب مزاج صالح. تُطيِّبني من أجل صالح. تغسلُ شعري من الصِّئبان ببول الإبل من أجل صالح. لا أحد يسألني ما أُحِب. ابن عمك لا يُحبُّ هذا، ابن عمِّك يُحبُّ ذاك، اعتني بشعرِكِ من أجل صالح، كُلي كثيرًا لتدُبَّ العافية في جسدك من أجل.. تعِبْت.

هجرتُ خيمة النِّساء ولذتُ برَعي الأغنام الغبية في العراء، أطوف مراعي الكلأ أُفكِّر بـِ دخيل الذي قيَّدني بسحرِ عينيه وانسَل. تبرزُ وَضْحَى البلهاء بين الغنم بعنقها مثل أفعى في كومة صوف. تلحقُ بنا أُمُّها الجديدة، تُفرِّق القُطعان وتندسُّ بينها تبحث عن صغيرتها المتبنَّاة. أناجي ناقتي الصَّغيرة وأقرأ جوابها في عينيها. أُلاعبُها. أجرُّ ذيلها وأُعرقل مشيها بساقي. أطرحُها أرضًا أمام عينيّ أُمِّها الجديدة، نتمرَّغ بالتُّراب وأعانقُها. النَّاقةُ الأُم تدري أني لا أنوي إيذاء صغيرةٍ بمنزلةِ أُخت.

لم يدرِ صالح أنه منذُ قرارهم ذاك وأنا كما أرادوا لي، صرتُ حجرًا. لا مشاعر أحملها له، لا أُحِبُّه لا أكرهه. كان يتودَّدُ ويتوقُ لأن يبدُر مني شيءٌ تجاهه، أيُّ شيء، لكني كنتُ طفلةً عصيةً على طموحه. استكثرتُ فيه حتى إحساس الكراهية، وإني لأدري أن كراهيتي سوف تُرضيه لأني أُلقي له بالًا.

جاءني ذاتَ صباحٍ كنتُ أسرحُ فيه مع النَّاقة وصغيرتها والغنم، يرتدي الغترة أوَّل مرَّة، واسع الابتسامة، يحملُ رَبابةً كان قد أوصى أحدهم بصُنعِها. جاء يصحبُ شقيقه الأصغر، شاعر القبيلة المقبل الذي لمعَ اسمه التماع البرق. فالح، الملعون بروح الشَّيخ.

تقولُ أُم دَحَّام إنه وُلِد ساعة موتِ أكبر مُعمِّرٍ في القبيلة، الشَّيخ أبي غرابين، أشهر شعراء القبيلة وصقَّاريها. قيل إنه عاش ألفَ حَول، ولم يُصدِّق أحدٌ في القبيلة أنه يموت، لكن في ليلةٍ غائمةٍ ظلماء ارتفعت صرختان من خيمتين في الوقت ذاته؛ صرخة العجوز حفيدة الهَرِم إثر موتِ جدِّها، وصرخة أُم صالح وهي تضع مولودها الثاني فالح. أُم دَحَّام تؤمن أن روح الشَّيخ قد سبقت شهقة الوليد الأولى بين فخِذَي أُمِّه، وسكنت جسده. تُدلِّل العجوز على صدق إيمانها بصمتِ الوليدِ عن صرخة الحياة

لحظةَ ولادتِه، والصمتُ حكمةٌ لا يُتقنها إلا الشُّيوخ. كبُرَ فالح، وما انفكَّت أَم دحَّام تُذكِّرنا بإيمانها. تُشير إلى حاجبَيّ الطِّفل الكثَّين: "أبو غرابين"، وصوته الذي يُشبه صوتَ الكبار، كما لو أنه وُلِد بالِغًا. لكني أدري أن فالحًا لا يطمح لشيء، من وراء تصرفاته كالكبار، إلا لفتِ انتباه شيخ القبيلة، أبيه الذي لا يُباهي بأحدٍ من بنيه إلا صالح.

"سوف يحيا ألفَ حَول"، قالت العجوز.

جاء صالح، يمشي إلى جواره فالح يحملُ صقرًا مُبرقعًا بيمينه ووعاءً نحاسيًّا في يسارِه. أسدلتُ البُرقُعَ على وجهي فورَ اقترابِهما ونأيتُ بناظريَّ. استغرب صالح:

"ليه؟".

أكملتُ سيري إلى جوارِ وَضْحَى دونما التفات، وأنا أستعيد كلام حَسْنى التي أطبقت كفَّها على نتوءٍ في صدري قبل يومين:

"تقول الحريم إني صرت حُرمة".

"أحلى حُرمة"، قال بصوتٍ حَييّ.

دَنا فالح مني يمدُّ ساعده بالصَّقر. أدريه يتحدَّاني وهو الذي اعتادَ إخافة بُنيَّات القبيلة بطيرِه. تجاسرتُ على خوفي، وأفرغتُ مِزْوَدَتي من أغراضي الصَّغيرة، ولففتُها حولَ ساعدي مثلَ جبيرة. مددتُ له ذراعي أزمُّ شفتيَّ مُتيبِّسة الجسد، أخشى انكشافَ خوفي أكثر من خشيتي من الصَّقر. أنا أحتملُ الخوفَ ولا أحتمل انكشافه. سرعان ما أَلِفتُ وقوف الطائر على ساعِدي الملفوف بالقماش. خابَ رجاءُ فالح. استدار يُقعي تحت إحدى النِّعاج يحملُ وعاءه. وتربَّع صالح على الأرضِ يُغني على رَبابتِه أبياتًا صاغها شقيقه. ضحكتُ بصوتٍ عالٍ، وكان حريًّا بي أن أطربَ لسِحر غنائه وعذب الكلام لو كنتُ أطيقه. لم يُتقن العزفَ على الرَّبابة ولكن صوته كان شجيًّا، وكانت كلمات فالح عذبةً شفيفة تُشير إليَّ في كُلِّ شطر، وكنت حقيرة أدري. مكثتُ أضحكُ وصقر فالح على ساعدي، وكلمات قصيدته في رأسي، وما شعرتُ بوخزة حزنٍ أمام انكسار صالح، وما فكَّرتُ بمناداتِه وهو ينسحبُ كسيرًا إزاء ضحكي. ما حملَ صالح رَبابةً بعد تلك السَّاعة قط، وما كفَّ فالح من أن يُطيل النَّظرَ

إليَّ على نحوٍ لم أفهمه. اقتربَ مني قبلَ أن يستعيد صقره ويمضيَ وراء أخيه، يمدُّ يده بوعاء الحليب، يسألني رأيي عن كلماتِ القصيدة التي أنشدها شقيقه. أبعدتُ الوعاء بكفِّي ولم أُحِر جوابًا، أُحاول فهمَ تعبير وجهه. نظرَ إلى وجهةِ ذهابِ صالح قبل أن يقول:

"لو أرحتُكِ منه؟".

"يأخذني دخيل"، أجبته مُندفعة.

افتعلَ ابتسامةً تكبح غضبه. حمل صقره ومضى يتبع صالحًا.

تضاعفت كراهية صالح لِـ دخيل بعد ضحكي، وما ضحكتُ سخريةً من عزفه على الرَّبابة، فأمره لا يعنيني مهما فعل، إنما ضحكت على نفسي في موضع فالح قبل سنواتٍ، في ساعةٍ كنتُ ألهو فيها بين قطيع الغنم. ضحكتُ إزاء مشهد فالح وهو خبيرٌ بحلبِ النَّعجة، لأني تذكرتُ فيها أوَّل لقاءٍ بيني وبين ابن خالي وسط الشِّياه الغبية. كنت أرى خالي الذي يزور مضاربنا بين عيدٍ وآخر، ولكنها المرَّة الأولى التي يُحضر فيها عائلته معه، ضربَ خيامهم إلى جوارنا طيلة موسم الرَّبيع. وكان عهدي بِـ دخيل أوَّل مرَّة بلمسة يد، قبل أن أراهُ أو أسمع صوته.

كنتُ وحيدةً بين البهائم صبيحة عيد الأضحى، طفلةٌ تخبَرُ الغنمَ أوَّل مرَّة. أتلفَّت وأنتقي بهيمةً أملأ وعائي بحليبِها كما تفعل فتيات القبيلة. أقعيتُ إلى جوار البهيمة ورحتُ أعبثُ في ما بين ساقيها الخلفيتين أعصره بيد، وبيدي الأُخرى أحملُ الوعاء. كنتُ منهمكةً بعملي دونما حصولٍ على قطرة حليب واحدة. تعرَّق جبيني وأنا أعصرُ الضَّرع الذي ينكمش ويستطيلُ إزاء عبثي. وحمدًا لله أن أرسل لي مَن أطبقَ قبضته على ساعِدي، يُبعد كفِّي العابثة قبل أن تدرَّ البهيمة حليبها المغشوش. أمسك بساعدي الرَّقيق الأملس قبل أن تطاله آثار أسناني. كان دخيل الذي رأيته لأوَّل مرَّةٍ عاقِدًا حاجبيه متورِّد الوجه.

"هذا خروف!".

قال من دون أن ينظرَ إليَّ، وهو يكبحُ جماحَ ضحكةٍ مُلِحَّة. أفلتُّ ساعِدي من

قبضتِه. رفعتُ ساقَ البهيمة، كالبلهاء، أَريه ما كنتُ أعصُر:

"بل إنها نعجة، حتى أُنظر لضَرعِها!".

أطبقَ كفَّه على كفِّي يُبعِدها.

"خروف يا نعجة.. ألا تفهمين؟!".

مرَّغتُ كفِّي بالتُّراب واستقمتُ واقفة أمسحها بثوبي، وأنا أُكيل الشتائم للخروف الغبي الذي صدَّق أنه نعجة. أدارَ دخيل ظهره لي وانفجرَ ضاحكًا يمضي صوبَ الخِيام:

"ليس الخروف هو الغبي!".

أثارَ حنقي. انتبهتُ إلى ميلِ عِقالِه فضحكت.

"عِقالُك مائل!".

ضحكَ أكثر:

"وأنتِ غبية".

ما كنتُ كما أعرفني طفلةً طويلة اللسان تتحدَّث مثلَ العجائز. نعَتني بالنَّعجةِ واتَّهمني بالغباء وما نطقت. ابتلعتُ لِساني أمام ابن خالي ولا أدري لصمتي سببًا. هل يُدرك المرءُ الحُبَّ قبلَ سقوط أسنانِه اللبنية؟ هذه أوَّل مرَّة ألتقيه فيها، وصارت ذكرى ذلك اليوم مدعاة ضحكي، أو على الأقل ابتسامتي. وصرتُ أضحك على نفسي مُذ ذاك كلَّما مررتُ بأحدٍ يحلبُ نعجة، ولا شأن لضحكي برداءة عزفِ صالح على رَبابتِه، ولكني رضيتُ بأثر الضَّحك الذي فُهم بغير ما أقصد، وإني لأرضى أكثر لو أن صالحًا فهم دافع ضحكي الحقيقي.

في الفترة التي أقام فيها خالي إلى جوارنا، بلغت غيرة صالح مبلغًا عبَّر عنه بشجّ حاجبِ دخيل في معركة صبيانية. لم يبلُغا الحُلمَ بعد. كان ابن خالي على مبعدة من الخيامِ ليلًا، استدرجته جلبةٌ عند الشِّياه، وقتَ داهمه مُلثَّمٌ بمقبض خنجر. تعاركا

في الظّلام، وفرَّ الملثّمُ مخلِّفًا ذاك الفَلع في حاجب دخيل. صالح يُقسِم بأنه لم يفعل، ودخيل يقسِمُ بأنه لا يدري من. وحدي أقسمتُ أنه صالح، لأنه صالح.

* * *

وجهُ فالح مُنطفئ لا يحملُ سرورًا في خبر.

لا بشارة في عينيه، ولا في ثيابه الممزَّقة، ولا في جُرح ساعِدِه عند مجيئه بعد أيامٍ من إبلاغ صالح بضرورة الالتحاق برجال القبيلة، نصرةً لرجال ابن صُباح وابن سعود ضد أمير حائل ابن رشيد. جاء فجرًا يمتطي ناقته يحملُ بُندقيتين على ظهرِه، يُمسك بيده السَّليمة عود خيزران يسوطُ به ظهر النَّاقة، وأخبار الهزيمةِ في عينيه.

"صالح صويب".

قال دونما تحديد نوع الإصابة. نظرتُ إلى إحدى البُندقيتين اللتين في حوزتِه؛ بُندقية صالح! التفتُّ إلى صغيري، وأنا أتخيَّل صالحًا يموتُ بسبب رصاصةٍ عُثمانيةٍ في الرأس أو الصَّدر أو البطن. أجفلتُ من خاطرٍ مرَّ ببالي عن مآل ولدي بموت صالح. سألتُ فالحًا عن موضع الإصابة في جسد شقيقِه:

"أين؟".

أشارَ صوبَ الشَّرق:

"الكويت".

هززتُ رأسي أوضِّح:

"أين موضع الإصابة في جسد صالح؟".

قطَّبَ حاجبيه الكثَّين المغبرين:

"لو أنكِ تسألين عن الموضع السَّليم في جسدِه!".

"هل يعي ما حوله؟"، سألتُه.

كان على ظهر ذَلولِه لا يزال. نظرَ إلى البعيد يُردف:

"صالح لم يكن واعيًا في يوم".

نظرَ في عينيَّ مليًّا. أردف:

"لا أظنُّه يعود".

"ليت رسول ابن صُباح ما جاء يطلبه للانضمام إلى الهجَّانة"، قلت له يتملَّكني الفزعُ أُفكِّر في ما سوف يصيرُ لولدي.

نظرَ بعيدًا قبل أن يقول:

"ما طلبه أحد".

"ولكنك قُلت.."، قُلت له أذكِّره بلحظة مجيئه قبلَ أيام.

"أنا أقول أشياء كثيرة"، قالَ باسِمًا وهو يلتهمني بعينيه.

نكز بطنَ ناقته. اقتربَ إليَّ ينحني هامسًا، كما لو أن للبرِّية آذانًا مُتلصِّصة:

".. ودخيل بِن أسمر".

تسارع وجيبُ قلبي. مدَّ فالح سبَّابته يُصوِّبها ناحية الشَّرق بعدما أفضى باسم دخيل. استقامَ على ظهر النَّاقة يُشير إلى صدره:

"وأنا.. تعرفين دَربي".

ساطَ ظهرَ ناقتِه بعودِ الخيزران. رفع صوته:

"أُحبُّ من يجيئني حُرًّا على هَواه".

راحت ناقته تسابقُ الرَّيح، في حين سمَّرَ قولُه قدميّ في الأرض. فكَّرت في أمر بُندقية زوجي لدى أخيه. فكَّرت. صالح ودخيل في الكويت! أيُّ جنونٍ هذا؟! طردتُ أفكاري. فكَّرت. فالح مجنون. التفكير تأخير. لملمتُ أغراضنا القليلة أُفكِّر في ما سوف أصنع. لا تُفكِّري. حملتُ مزودتي، وطويتُ الخيمة الصَّغيرة. ماذا لو جاء صالح وأنا في طريقي إلى حيثُ يُقيم؟ والولد، ماذا عن الولد؟ لا تُفكِّري. جهزَّتُ رَحْلَ وَضْحَى بعدما ربطتُ اثنين من ضروعِها لأحتفظ ببعض الحليب زادًا للرِّحلة، تاركةً اثنين للحُوار. قربة الماء بالكاد تكفينا، والسُّيول لم تُدرك الشِّعاب في هذا المكان بعد، ووَضْحَى ما وردت ماءً ولا صغيرها منذ أيام. ورغم ذلك أزمعتُ على الرَّحيلِ شَرقًا صوبَ ما يُسمونه البحر. ألقمتُ ناقتي تمرةً ووعدتُها بأُخرى لحظةَ وصولنا.

نهضَت وَضحَى بقائمتيها الخلفيتين مُتَّزنةً سامِقة. استقامت على أربع وهي تجرشُ نواة التَّمر، تحملُنا أنا والولد المربوط إلى ظهري وخيمتنا الصَّغيرة. مسَّدتُ على وَبَرِها المتساقط أُطمئنها وأعدُها بلقاءٍ وشيكٍ لِـ ساري.

"لكِ في الشَّرقِ حبيب.. ولي في الشَّرقِ حبيب".

راحت وَضْحَى تدورُ حَول نفسِها ويتبعُها الحُوار الصَّغير. تركتُها تسيرُ على هواها فهي مأمورة، يدُلُّها وَلَهُها على آثار أخفافِ ساري في الأرض، تتشمَّمُ ريحَ بولِه المنثور على دربٍ يؤدي إلى القبيلة. سوفَ أُحاذي مضاربنا عند الاقتراب، وأضعُ الشَّمسَ بين عينيّ وأحثُّ وَضْحَى على تجاوز مَقامنا، والإيغال في المسيرِ شرقًا صوبَ الكويت.

"العلم عند الله"، كانت آخر كلماتٍ قالَها قبل رحيلِه وقتَ ذرفَ الدَّمعَ صامتًا. عند الله، مثلَ أُمِّي التي راحت إليه، ومثلَ كُلِّ شيءٍ لا يعود. العلم عند الله، وأنا لا أناة لي على انتظار علمٍ يجيء أو لا يجيء. سوف أُطارد العِلمَ وأُدركه ولو كلَّفني الأمرُ الذهابَ إلى الله.

فيما مضينا في أوَّل الدَّرب، على ظهرِ وَضْحَى المتهادية في مشيها؛ لاحَت لي كائنات البريَّة تُغادر بيوتها أفواجًا تحتَ الشَّمسِ في العراء، تُشيِّعها صرصرة الهَبوب. مواكب تتفرَّق وتتذرَّى أسفل النَّبات. أُنثى ثعلب تحملُ صغارها بين فكَّيها خارج وكرِها، وجحورٌ تلفظُ قاطنيها مِن يَرابيع وأورالٍ وضِبابٍ وعقارب وخنافس

ضخمة. عظيمة هذه الأرض كيف تؤوي كُلَّ هذه الكائنات! "سوف تُمطر"، قلتُ في نفسي، رغم أن صَحو السَّماء يشي بنهارٍ رائق، لولا الهبوب الذي داهمنا.

أومضَ برقٌ. قصفَ رعدٌ. صاحَ صغيري وتلكأت النَّاقةُ فزِعةً متعثِّرةً في مشيِها. سكبت السَّماءُ المطرَ مدرارًا أثناء الدَّرب، كما لو أن يد الله سُبحانه تعتصرُ السُّحُب. يدلقُ ماءها ليغورَ في الأرضِ ويملأ الغُدران والشِّعاب قبلَ مُضي الشِّتاء. إنها الحكمة في لغة الأشياء الصَّامتة كما يقول دخيل.

"مَطر"، قلتُ في نفسي، "إنها بشارة"، قلتُ لِـ وَضْحَى.

كرَّت الظِّلالُ الدَّاكنة، وفرَّ النُّور فرارَ اليرابيع تحت وابل المطر وسياط البرق. أوجستُ خيفةً في نفسي مع تواري الشَّمس وراء السُّحب.

"حجبَ الله الشَّمسَ كيلا أستدلَّ على الشَّرق"، حدَّثتُ نفسي. "نذيرُ سوء"، قلتُ لِـ وَضْحَى.

تلك لُغة هذا الفضاء الأخرس، وأنا بالكاد أفقهُ منها النَّزير. وبين بشارةِ مطرٍ ونذيرِ شمس؛ تذكَّرتُ أن لي في الشَّرق حبيبًا. عصَيتُ الشَّمسَ وتبعتُ نبوءة المطر دونما تفكيرٍ في عواقب. سوف تنجلي السُّحب، وأُدرك الكويتَ وجهة الشَّمس، ولكن يد الله كانت سخيَّة لم تُمسك الجَود. امتلأت الأوكارُ والجحورُ والدُّحولُ بالماء. خاضَت أخفافُ وَضْحَى وصغيرها في الطِّين واختفت آثارُ أخفاف ساري، وأنا في طريقي مُثقلة بأحمال ذكرى الأمس، أخشى أن تغوص قدمايَ في طينِ اليوم.

صفير الرِّيح يُشَيِّعنا مثلَ عواء الذِّئاب يجيء من كُلِّ صَوب. وعزيفُ الرِّمال يسترسلُ وترعدُ السَّماءُ وتجفلُ النَّاقة وتأبى المسير. قصفُ الرَّعدِ في أُذنيَّ صُراخ سماءٍ ناقمة. وبردُ الرِّيح يعوي في الضُّلوع يزيدُ أجسادنا المبتلَّة بردًا. لا يهلُّ المطرُ عادة بهذه الغزارة في الرَّبيع، كأن الشِّتاء تذكَّر أمرًا وعاد على غفلة، دافعًا بالرَّبيع إلى التقهقر ليُعيد ترتيبَ نفسِه. تخلَّت عني الشَّمسُ سخطًا، ولكني من أجلِ البشارة، أُصدِّق نبوءة المطر.

أنختُ وَضْحَى ووضعتُ وعاءً أجمعُ فيه ماءَ السَّماء. كابدتُ في إنزال خيمتي الصَّغيرة من على ظهرها، وقد تشرَّب نسيجها المطرَ، وصارَت بوزن حُوار.

جررتُها إلى مُرتفَعٍ ونصبتُها، ولذتُ بها وصغيري عن جنون السَّماء وهزيم رعودِها ووميض بروقِها. نَامَ الصَّغيرُ على وقع انهمار المطر. لم تبدُ في نفسِ الغيوم نيَّةٌ على المضي بعيدًا، أو إمساك ما في جوفِها. "المطر بشارة خير"، قلت لنفسي أُطمئنها. يبدو أن الشَّمسَ قد غضبت بحق. هل تُعاقبني بعدم بزوغها بعد اليوم أبدًا، وتُحيل أياميَ ليلًا سرمديًا؟ أخرجتُ من مِزْوَدَتي سراجًا صغيرًا أشعلتُ فتيله، رحتُ أُبدِّد الوقتَ بأن أنظرُ في وجه صغيري. يغفو في دثارِه الصُّوفي هادئًا مثل الخرانق في فراء أُمهاتِها. جُرمه الصَّغير عزَّز فكرة نساء القبيلة بأني وضعته في الشَّهر السَّابع، بعد زواجي بسبعة شهور، رغم أني أنجبتُه في التَّاسع.. لو كُنَّ يعلمن.

أخرجتُ من المزْوَدة حفنةً من طحين الحِنَّاء. رحتُ أعجنها بقليلٍ من الماء، وأمضيتُ وقتي أنقشُ على كفِّي اليُمنى زهورًا برِّية وأوراق شجر. مضى وقتٌ طويلٌ مُذ اتَّخذتُ قراري العزوفَ عن نقشِ كفِّي. أخرجتُ مكحلتي وكحَّلتُ عينيّ. غفوتُ إلى حين تيبسَ نقوشُ الحِنَّاءِ في كفِّي ويجفُّ طينُ الدَّرب.

* * *

مرضتُ يوم مرضت وَضْحَى، هكذا هي الحال دائمًا بيننا. كانت أيامًا عصيبة أيام حيضتي الأولى وأنا أَخبَرُ دمًا من دون جُرح. تلك الحيضة التي تأخرت كثيرًا حتى ظننتُها لا تجيء. أصابتني الحصبةُ وأصابها الجرب. كدتُ من الحُمَّى أموت، وأوشكت وَضْحَى بفعل وشاية القطران أن تُفارق الحياة. قضيتُ عشرة أيامٍ أهذي في الخيمة. تدهنني أُم دَحَّام بالزّيوت العطرية السَّاخنة نهارًا، وتسهر حَسْنى طيلة الليل إلى جواري، تُمسِّد شعري وتُحدِّثني عن عالم الحريم الذي أَلِجُه حديثًا، قبل شهرين من زواجي بـ صالح، وأنا أفكِّر في دخيل الذي غادر على فرسِه قبلَ ثلاثة أحوال، وإجابته المفتوحة على كل الاحتمالات ساعةَ سألته هل نلتقي، وأجابَ ليته لم يُجِب.

شُفيت قبلَ وَضْحَى، بعد انتهاء حيضتي الأولى، وتنكبتُ ثقلَ الشُّعور بأني نكثتُ ميثاقًا كتبه القدر؛ بأن تكون واحدتُنا مثيلة الأُخرى، في العافية والمرض. أمضيتُ نهاراتي إلى جوارها، أُعاود دَهن مواضع الجرَب في وركيها وخاصرتها ببولِها تارةً، وتارة بالقطران الذي أعطتنيه أُم دَحَّام. أدعك وسمها 木 كيلا يطاله الجربُ ويمحوه، فنعاني التهابَ وسمٍ جديد. أنظرُ في عينيها أستعيدُ حديثَ ابن خالي حول لقاءٍ مُحتمل: "في عيون الإبل". كُنا نثيرُ الشَّفقة، وَضْحَى بالجرَب ولطخات القطران، وأنا الصَّفراء بآثار بثور الحصبةِ، أُبحلق في عينيها طويلًا أتحرَّى لقاء دخيل.

خرجتُ لرعي الأغنامِ أصحبُ ناقتي بعد شفائها، وأُمُّها تعتلف غير بعيدةٍ عنَّا، ترفعُ رأسها تراقبنا من بعيد قبل أن تنحني للرعيّ ثانية. جمعتُ يابس النَّبتِ وأخرجتُ من مزودتي زندًا وصوّانًا وأوقدتُ نارًا، ومكثتُ أُراقب الماشية. مرَّ غير بعيدٍ عنَّا رجلٌ يمضي غربًا، في مشيته عَرَجٌ واضح، يحدو قطيعًا كبيرًا من الإبل السُّود الأصيلة، يتقدَّمُ الجِمالَ المجاهيم كأنها بعضٌ قُدَّ من ليل، يُغنّي بصوتٍ مُرتفعٍ حادٍّ كصرير الرِّيح، يصلُ إلى آخر القطيع الذي لا يُرى آخره. خبَّت وَضْحَى الغبيةَ صوبَ الغيمة السَّوداء تتبعُ حداء الرَّجل، تغوصُ في حلكة القطيع الأسود مثل قُرص إقطٍ في بقعة قطران، وبواقي القطران في جسدها كادت أن توديَ بحياتها. ركضتُ وراءها أبحثُ عنها بين سيقان القطيع الأسود. ركضَ إلينا حادي الإبل يرفعُ ثوبه

ويعضُ طرفه، يرفعُ عصًا غليظة بكلتا يديه، يُبعد وَضْحَى عن قطيعِه بعدما أفشت اللطخات السُّود على جسدِها إصابتها بالجرَب. يا لِتِلكَ العصا الغليظة كم آلمتني. فلعَ رأسَ وضحائي بعصاهُ وأدماها، أدمى الله قلبه. ما رقَّ قلبه لصرخاتي وأنين الوجع. كادَ أن يُصيبَها الخبَل. جاءتني تُسرع تلوذُ بي والدِّماءِ تسحُّ على هامَتِها، مثلَ مجنونٍ هاربٍ من حَجَّام لم يُتمَّ عمله. عانقتُها وعيناىَ على النَّاقةِ الأُم خشية أن تثور، ولكنها كانت تولينا ظهرها ترعى بسلام. عدتُ إلى الخيام أملأُ وعاءً من قطران أُم دَحَّام، وفي المرعى تربَّصتُ للقطيع الأسود أنتظرُ ظهورَ آخره بعدما حملتُ من النَّار شُعلة. تسللتُ بخفَّةٍ وراء آخر جملٍ في القطيع الفاحم، جمل حقير أعرج، سكبتُ على مؤخِرته السَّائل الأسود. شبَّت فيه نارٌ أحالته قطعة من الفحمِ المتَّقد. ولا أتذكَّر شيئًا عقب ركضي إلى الخيمة إلا عَصا راعي المجاهيم وألمي، والدَّم الذي سالَ بين فخِذَي بعد بضعة أيامٍ من تطهُّري من حيضتي الأولى، ورُكبتين أضمُّهما إلى صدري، أُسند إليهما جبيني وأنا أُكركر في فورة انتحابي. أطبقُ أُذنيّ بكفَّي، أُخرس صيحات بنات القبيلة ونسائها خارج الخيمة:

"صالحة بنت أبوها في الخيمة.. صالحة بنت أبوها في الخيمة!".

* * *

واصل المطرُ انهماره طيلة الليل الذي لم أنم منه ساعة. خشيتُ على الصَّغير من هوامِّ الأرض وزواحِفِها التي لاذت بالخيمة تتذرَّى عن المطر. أمضيتُ الليلَ بين طرد أفاعٍ وهرس خنافس وكفخ بعوض. لا أفهمُني إذا ما صرتُ لوحدي في حضرة صغيري. أفكِّر في مجيئه، ونفوري منه في شهور مولدِه الأولى، حتى أن ثديَي لم يدُرَّا حليبًا لحين أتمَّ الشهرَ الثالث. لم أحمله إلا لمامًا، نهرتني أُم دَحَّام وهي تمُدُّ يديها تُناولني الرَّضيع:

"ولدك يا بنت.. خرج من أحشائك!".

أخفيتُ يديَّ وراء ظهري وأشحتُ بوجهي بعيدًا:

"كما لو أني تغوَّطته".

هزَّت العجوز رأسها آسفة:

"طفلةٌ غبيةٌ ولا تفهمين شيئًا!".

طردتُ خيالات أُم دَحَّام، وغفوتُ جالسة إلى جوار صغيري، وأنا أقبض على خنجر صالح بكلتا يدي خشية تسلُّل حيَّة غادرة. لا أريدُ الموتَ لولدي قبل إدراك وجهتي. استيقظتُ على نقيضِ العُقبان. لم يكُن الخنجر في كفِّي، ولم أجد في موضعِ نوم الولد إلا دِثاره الصُّوفي. فرَّ عقلي. نهضتُ أركضُ خارج الخيمة لا أقوى على فتحِ عينيَّ في وجه الشَّمس. الأرضُ يابسةٌ والسَّديم يتلألأ في الأُفق. تبدو وَضْحَى وصغيرها تحتَ الشَّمسِ الملتهبة، مثلَ قطعتين من نورٍ عند التقاء الأرض والسَّماء، يطفو بينهما ولدي. رفعتُ كفِّي مبسوطةً أمام جبيني أحجبُ أشعة الشَّمس. ركضتُ صوبهم. كان صغيري يمتطي الحُوار، ويرضعُ الاثنان من النَّاقة. انتزعته من أسفل وَضْحَى أضمُّه إلى صدري. وبَّختُه في الخيمة وسخطتُ على ناقتي، كيف تجرؤ على أخذ ولدي؟ فكَّرتُ لو أني أستدرجُ حُوارها أُرضعه، كيف تشعر؟ وفكَّرتُ أكثر بمشاعر غيرتي على ولدي الذي أكره وأُحِب. كنتُ أتعرَّق وأنا أقوم بإرضاعِ الولد.

غفوت. صحوت وأنا أهذي، أَطبق كفّي على الخنجر، والصَّغيرُ ينامُ في دِثاره الصُّوفي على الأرض. قبَّلتُ جبينه الدَّافئ وقبضتي مُتعرِّقة مُطبقةٌ على الخنجر و.. آه يا ولدي الملعون مُذ كان في بطني.

مشيتُ على أربع أطلُّ برأسي خارج الخيمة الصَّغيرة. سماءٌ صَحو وصحراءٌ متخمةٌ بالماء، تتجشَّأ الأرضُ نسماتٍ عُشبيَّة، نفحتني ريحُها الرَّطبة وأنعشت روحي. كان الوعاء الذي وضعته البارحة فارغًا من الماء، عبَّهُ الحُوار أكيد. شربتُ رشفتين من حليب وَضْحَى التي أمضَت أوَّل النَّهار تعتلفُ مع صغيرها. جهَّزتُ الرَّحْلَ ثانيةً. مسَّدتُ على عُنق ناقتي التي نفرتُ منها قبل سُويعة في الحُلم. همستُ لها أُذكِّرها:

"لنا حبيبان في الشَّرق".

ربَّتُّ على رأسِ حُوارِها أُذكِّره بلقاءٍ قريبٍ يجمعه بأبيه، ثُمَّ نظرتُ إلى صغيري لا أقوى على قطعِ وعد. ربطتُه إلى ظهري، وامتطيتُ النَّاقة التي استقامت تُرغي متثاقلةً، تستأنفُ السَّير صوبَ الشَّمس الآخذة في الارتفاع. خبَّت وَضْحى بعد استراحة البارحة، وأنا والصَّغير نختضُّ على ظهرها مثل زبدٍ في قِربة لبن. بدت الأرضُ رائقة حتى أوغلنا في الطَّريق إلى أرضٍ يباسٍ مثلَ وجه أُم دَحَّام. كما لو تحاشتها السُّحُب. أدركنا الأرضَ جافَّة الرَّمل، ميَّزتُ فيها آثار أخفاف ساري مرَّة أُخرى بعد انقطاعها في مساحة المطر وراءنا. وآثارُ أخفافٍ تُحاذيها على مبعدة أذرُع، صِغر أظلافِها يقول إنها ناقةٌ أصيلة، والمسافة بين آثارها يشي بمدى سُرعتِها، هي ناقةُ فالح لا شك.

صارت الشَّمسُ شديدة الحرارة على نحوٍ لا يُطاق. لم يهنأ الرَّبيعُ بربيعِه. تبدو عليه ندوبُ غارات زمهرير البارحة وقيظ هذا النَّهار. عرفتُ أن الشَّمسَ ما زالت تلعنني. الماءُ في قربتي بالكاد يكفي الولد، وأراضي الشِّعاب وراء ظهري فهل أعود؟ لا تُفكِّري يا صالحة. ألتقمُ تمرةً أحتفظُ بها فوق لساني أستدرُّ بها ريقي الجَّاف. هل نموت قبل إدراكِ وجهتنا؟ الكُثبان الهلالية تزحفُ حولنا. ضربتُ وركَ وَضْحَى أحثُّها على الإسراع. التفكير تأخير. نظرتُ إلى الشَّمس فوقَ هامةِ ناقتي، وتذكَّرتُ شمسَ الحِنَّاء في كفِّ أُم دَحَّام. أُنصِت إلى ثغائها:

"ما فاد في الشَّمس عناد".

مشينا على أخفاف البعير وريحِ بولِه حتى رجعنا إلى القبيلة. حاذيتُ مضاربنا على مسافة بعيدة. لو أن أحدًا فيها علم بنيَّتي الارتحالَ شرقًا لما تركني أفعل من دون مرافق، وأنا النَّاقةُ رفيقتي، والشَّرقُ غايتي، والشَّمس وجهتي وإن لعنتني؛ سوف أقتفي نبوءة المطر.

أنَختُ وَضْحَى وضربتُ خيمتي عند المساء. تتناهبني المخاوف. هل نصل؟ أعرفُ أن الكويتَ في الشَّرق، ولكنها تبدو بعيدة، أبعد من الشَّمس. أو رُبَّما كان الوصول إلى الشَّمسِ أسهل من إدراك الكويت. المسافة إليها بلا آخِر، والطريقُ طويلةٌ وأنا معي طفلٌ صغير. لا تُفكِّري. أرضعتُ صغيري وأطعمته، وتناولت تمرًا وخبزًا، وسهرتُ على ضوء السِّراج ساهمةً أبتسمُ مرَّة، وأعبسُ أُخرى. أُنقِّل بصري بين النُّقوش في كفِّي اليُمنى وآثار أسناني القديمة في باطنِ ساعدي.

* * *

فيما كنتُ أُثيرُ زوبعةً من الغُبار أُطارح وَضْحَى، تناهى إلى سمعي رغاء بعيرٍ غاضب. قمتُ من فوقِ الصَّغيرة وركضتُ صوبَ الصَّوت، وإذ بفتية القبيلة وصبيتها يتجمهرون حول بعيرٍ عِملاق، تبارى دخيل وصالح على طرحِه، ومن سوء حظِّ دخيل أن الغلبة كانت له بعد جولاتٍ مُنهكة. غلبةٌ دفعَ ثمنها ليلًا بشجِّ حاجبِه. ما أقسى صالحًا، أحقد من جمل، على عكس شقيقِه. كان فالح على النَّقيض تمامًا، وكان مثارَ إعجابِ فتيات القبيلة بوسامتِه وقوامِه والشِّعر الذي يقوله موزونًا مُقفًّى مُذ كان طفلًا، تُقسِمُ أُم دحَّام أن حتى بُكاءه طفلًا كان موزونًا مُقفًّى. فالح الشَّاعر الصقَّار الذي فعلَ كُلَّ شيءٍ للفتِ انتباه أبيه، ولكن شيخ القبيلة لم يكن يرى من بَنيه إلا صالحًا. كنتُ لِأُفتَن بـِ فالح لو أن ليس على هذه البسيطة إلاَّهُ وشقيقه. دخيل يحترمه، وأنا أيضًا.

ألفيتُه عند النَّار ليلًا، يوم طرحِ البعير، يُطعِم صقره يربوعًا. يجلسُ وحيدًا أمام خيمة المجلس الكبيرة وقد انصرف الشُّيوخُ والرِّجالُ إلى مخادعهم. عيناه الواسِعتان على طائرِه وهو يُطبِق مخالِبه على اليربوع، ويُمزِّق لحمه القليل بمنقاره. سَنا النَّارِ مُلقى على وجهه الأسمر، يبدو جادًّا إلى حدٍّ يدعو إلى الضَّحك، جديةً لا تناسبُ صبيًّا في مثل سِنِّه. يبدو كما نعتته أُم دَحَّام طفلًا بروح شيخ. فالح يُبصرني من دون أن ينظر إليّ وهو أمرٌ لا أفهمه. لم يلتفت صَوبي، حينما أقبلتُ إليه، وهو يُمسِّد ظهر طائِره:

"حيَّا الله صالحة".

جلستُ قريبةً من النَّار أُسند ذقني إلى ركبتَي أُحملق في الصَّقر. فالح يُسرف بالعناية بنظافتِه. صالح لا يعتني بشيء حتى نفسِه. لو أنه يلتفتُ إلى ذاته عوضًا عن الانصراف إلى الآخرين. فرغ الصَّقر من طعامِه، وألبسه فالح البُرقُع. سألني:

"يعجبُك الحُر؟".

كنتُ ساهمة بالطَّير وهدأته المستفزة على وكرِه:

"أيكون الحُر حُرًّا وهو مقيَّدٌ معصوبُ العينين".

أفلتَ ضحكةً من أنفِه:

"طويلة لسانٍ وغبية".

أوشكتُ أن أردَّ له النَّعت، ولكنه لم يكن غبيًّا في يوم، وهو لم يتَّهمني في ما ليس فيَّ، أنا الغبيَّةُ وكُل بُنيَّات القبيلة وعجائزها يشهدن. راح يحدِّثني عن صقره الذي يعود إليه، عن طيب خاطر، كلما أطلقه وراء فريسة. قال:

"أُحبُّ من يجيئني حُرًّا على هَواه".

تجاوزت تخاريفه:

"فالح!".

ردَّ دونما التفاتٍ إليّ:

"هممم؟".

"كيف عرفتَ أني المقبلة من دون أن تنظر إليّ؟".

أبعدَ عينيه عن الصَّقر وراح يُحدِّق في عينيّ:

"شمّيت ريحتك".

بدا الحزنُ على وجهِه حينما عاود مباشرةَ الطَّائر، يشدُّ خيط البُرقُع يُضيِّقه. اعتدلَ بجلستِه مثل الكبار، وأنشدَ بيتين من قصيدة غزلٍ مطلعها "قولوا لبِنت أبوها..".

أردفَ بعد أبيات القصيدة يقول:

"لمَ احمرَّ خدَّاكِ؟".

لم أَحِر جوابًا. كيف أبصرَ خجلي وعيناه على صقرِه؟ سهوتُ في وجهه كأني أتعرَّفه أوَّل مرَّة؛ عينان واسعتان دعجاوان كبيرتا السَّواد، تحت حاجبين شامخين مثلَ جناحي عُقاب. أنفٌ حادٌ ووجنتان سمراوان ناتئتا العِظام، وشفتان دقيقتان تنفرجان عن أسنانٍ كحبَّات البَرَد. رغبتُ في الهربِ من أبيات غزله، سألته:

"يبدأ شُعراء القبيلة عادة بقصيدةٍ تمتدح الأب، وأبوك شيخ القبيلة".

أفلتَ فالح زفرة طويلة لا تُناسب سِنَّه:

"هو لا يفخر بي كما يفخر بابنه صالح".

حدَّقتُ في عينه أقول:

"ابنه؟ صالح أخوك".

"لا أُحبُّه"، قالَ عاقِدًا حاجبيه.

تبادرت إلى مسامعنا جلبةٌ صوبَ مرعى شِياهِنا وشِياه خالي، وثُغاء نعجةٍ يرتفع كما لو أن حريقًا شبَّ في خيمة أُم دَحَّام. فزَّ فالح: "الذِّيب". تلثَّمَ بغترتِه وركضَ صوبَ المرعى تاركًا إيايَّ أمامَ الصَّقرِ والنَّار أتشمَّمُ ثيابي. لم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى ظهرَ صالح، بعد هزيمة طرحِ البعير، بعينين تقذفان شررًا من وراءِ لِثامِه. جلسَ إلى النَّار صامتًا.

في اليوم الموالي ألفيتُ دخيلًا قرب مرعى الماشيةِ، يُبرئ فلعَ حاجِبِه بعجينةٍ من البُنِّ والتَّمر. عدَّلَ ميلَ عِقاله وقتما اقتربتُ منه.

"أدريكِ تُحبِّينه بغيرِ ميلٍ على رأسي".

لم أُحِر جوابًا. طوَّقني القلقُ أحملقُ في عجينة التَّمر والبُّن على حاجِبِه. ابتسمَ يُطمْئن دونما التفات:

"داهمني لِصٌّ مُلثَّم عند مرعى الشِّياه البارحة..".

يقول إن الملثّمَ ضربه بمقبض خنجر.

"ملثَّم؟"، سألته وأنا أسترجع مجيء صالح بلثامِه ليلة أمس.

أشارَ إلى جُرح حاجبه المستتر بالعجينة وأردف باسمًا:

"ترَك لي هذه قبل أن يفرَّ هاربًا".

"صالح الوَسخ"، قلتُ له.

دسَّ كفَّه في مِزودته يُخرج خنجرًا أفلته الملثَّم قبل أن يولي هاربًا:

"هذا ليس خنجر صالح".

"صالح الوَسخ"، قلتُ له.

* * *

هذا الرَّبيع يُشبه حربًا بين الشِّتاء والصَّيف لا يستقرُّ على حال. الشَّمسُ تطبخُ رؤوسنا. ولا ماء في قِربتي والعَرق لا يروي ظمأ. ليس لي ولا للصَّغير إلا الصَّبر على سياط الشَّمس، وحليب ضرعٍ زاحمْنا به الحُوار، ونبوءة بشَّرتني بها سحابةٌ لا تعود. أتكون الكويتُ سحابةً تُبشِّر بما لا يجيء؟ أم سرابًا لا يُضنيه نأيٌ أبدي؟ أم نجمة تُرشِدنا إلى كُلِّ الدُّروب إلا دربًا يؤدي إليها؟ يبدو أني أموت. أدركُها ميتة على ظهر ناقتي، وقتَ تدلفُ الحاضِرة مع ابنها يلتقيان ساري، ويلتقي ولدي من؟

تتراءى لي في البعيد غمامةٌ سوداء تطفو على الأرض، أحسبها سرابًا لأشجارٍ لولا غناء الحادي الذي تبادر إلى مسمعي. "مجاهيم!"، قلتُ لِـ وَضْحَى وأنا أُنصت إلى وجيب قلبي، في أُذنيّ، مثل وَقعِ حوافر خيلٍ مُسرعة. تراءى لي رجلٌ لا يبدو من العُربان، شَعرُه بلا لون، غريب الثِّيابِ يقطرُ عرَقًا. شعرتُ باطمئنانٍ نحو الغريب. ركلتُ وَضْحَى في بطنِها، أحُثُّها على الإسراع صَوب الجِمال داكنة السَّواد. قطعانٌ فاحِمة، كما لو أنها كُتَلٌ من جُهمة الليل غنمتها الشَّمسُ في غارتها فجرًا. ما كنتُ لأقترب لولا شعوري بالوحشةِ لأيام. ارتبكت وَضْحَى على نحوٍ لم أفهمه. صارت تدورُ حول نفسها وترفض الانصياع. أمضيتُ وقتًا حتى تمكنتُ من إناخَتِها بعيدًا عن المرعى. ظهرَ راعي القطيع، رجلٌ شائه الوجه بآثار حروق، وإلى جواره الرَّجل الغريب يتحدَّثُ برطانةٍ غريبة، يهرجُ بما يُشبه حديثنا بلسانٍ أعوج. تقدَّم إليَّ الرَّاعي بخطواتٍ عرجاء يسأل عن ديارٍ أجيءُ منها. تذكَّرتُ قولَ صالح. أجبتُ الرَّاعي وأنا أُبحلِقُ في آثار الحروق في وجهه:

"ديار صالحة".

قطَّبَ الرَّجلان حاجبيهما ولم يُكثرا الحديث، واكتفى الغريبُ يخطُّ على ورقةٍ أخرجها من ثيابه. سَقانا راعي المجاهيم أنا والصَّغير، وأرشدنا إلى الشَّرقِ القريب، لترِدَ وَضْحَى وحُوارها من مياه الغُدران الشَّرقية وراء الجَهراء. الكويت بعد الغُدران مسافة لا تُذكر.

"إذا أدركتِ الغُدران وصحتِ بالسَّلام، أجابك أهل الكويت وعليكِ السَّلام".

ابتسمَ، ثُمَّ حذَّرني من الإبطاء فذئاب الليل تملأ المكان، والمسافة إلى الكويت مسيرة نصفِ نهار. أعطاني كومةً من الأخشابِ ونباتًا يابسًا تحسُّبًا لمداهمة الليل:

"إن سمعتِ حِسّها.. اِطفيه بالنَّار".

التمعت عيناهُ وهو يذكرُ النَّارَ بصوتِه الحاد. ارتبكت أمام كلماته وتشوُّهات وجهه. وفيما كنتُ أمتطي وَضْحَى، التي بدَت كالمخبولة تُرغي متوترة، سألني الرَّجلُ الغريبُ ثانيةً عن دياري. وصفتُ له الدَّربَ إلى الشِّعاب الغربية بين أراضي آل مهروس وبين ديار الأسمر. أخرج الغريبُ الورقة من ثيابه وراح يخُط، ونظرَ الرَّاعي صوبَ الغرب يتأكد من الاسم، ونظرتُ إلى وجهِ راعي المجاهيم مطموس الملامِح. سألني يتأكَّد:

"ديار صالحة؟".

أجبتُه قبلَ نهوضِ وَضْحَى:

".. ديارٌ صالحةٌ للعيشِ أعني".

ساعدنا الرَّجل ولكن وَضْحَى جازت إحسانه نكرانًا. بدا لي أن لوثةً قد أصابتها ولم أفهم تصرفاتها. رُبَّما أخافتها القطعان السُّود، قلت لنفسي، ولكنها خبَّت إلى الرَّاعي تُزمجر ما إن استقامت تحملني وصغيري على ظهرها. كادت تعضُّ رأسه، ناوَرَها، فظفرَت بكتِفِه.

ألقت بالرَّجُل بعيدًا وأنا على ظهرها أصيحُ بها، والرَّجلُ الغريبُ يُناورها ويُبعدها عن الرَّاعي. استقامَ الرَّاعي ينفضُ ثيابه من الغُبار، يُبحلق بـِ وَضْحَى ويشتُم: "الجرباء.. الجرباء". استدارت ناقتي نحو الشَّرق، وأنا صامتةٌ والرَّاعي يواصلُ صراخة: "لا بارك الله في الجرباء". أنا أكره هذ الحِس.

نصفُ النَّهار مضى، ولحقَ به نصفُ الليل، ولا أثر لغُدران ولا مدينة. لا جديد إلا صوتًا مُخيفًا يجيءُ من الشَّمال يبُدِّد هدأة الليل. صوتٌ رتيبٌ يُشبه أنفاسًا

ثقيلةً، كلما اقتربنا صارت أكثر وضوحًا مثلَ الشَّخير. أهو صوت البحر الذي يحكون عنه؟ أهي رائحتُه. الفضاء مُظلمٌ والقمرُ هلالٌ شحيح. والغُدران.. الغُدران هُنا، أدركناها أخيرًا. شربنا وكرعت فيها وَضْحَى والحُوار، والعُواء.. ليتني لم أسمع العُواء الذي جاوبناهُ عويلًا ورُغاءً وصياحِ طفلٍ وفضاءً يعزفُ رَبابة. أردتُ أن ألوذ بظهر ناقتي أنا والصَّغير، ولكنها مرعوبةً أبَت أن تبرُك. صارت تدورُ حَول نفسِها وصغيرِها كالمخبولة. والعُواء يقتربُ كما لو أنه يهبطُ من السَّماء الظَّلماء، لا أتبيَّن له وجهة. وأنا.. أنا أدورُ حَول نفسي لاهثةً أحملُ الصَّغير الذي يصيح ذُعرًا. تقفُ وَضْحَى فجأة تزفرُ زفرةً مُزمجرة. أُرهف سمعي. لا مزيد من العُواء، لا بُدَّ أن الذِّئاب قد صارت بعيدة جدًّا، أو قريبة إلى حدِّ صمتِها تحريًا للحظة انقضاض. عصرتُ ولدي بين يدي أُفكِّر في صوتِ نخيرٍ مُحتمل، يجيءُ من ورائي أو من أمامي، آخر صوتٍ أسمعه قبل أن تُمزِّق الذِّئابُ أحشائي. طال الصَّمتُ ولا هاجمتنا ذئاب، وكنتُ لأطمئن لولا رفض النَّاقةِ أن تَنوخ. هي أدرى، لعلَّها تُبصر ما لا أُبصر، وأنا لا أرومُ شيئًا إلا أن أكون في مأمنٍ على ظهرها. آهٍ لو أنها تَنوخ! عاودت الذِّئابُ تعوي. فككتُ رباطَ الأخشاب والنبات اليابس على ظهر النَّاقة. أخرجتُ من مزودتي الزَّند والصَّوان وأوقدتُ نارًا عظيمة، أودعتُها كُلَّ ما للنَّار قُدرةً على التهامِه. كفَّت الذِّئابُ عن عُوائها. وحده توتُّر وَضْحَى يدفعُ بالوَساوس إلى نفسي. شبَّت النَّارُ تُناهزني ارتفاعًا. استرسلَ صمتُ الذِّئاب، وسُبحان من جعلَ في النَّار أمانًا وجحيما. بالكادِ تمكنتُ من فكِ رباطِ الخيمة على ظهر وَضْحَى التي ترفض أن تبرُك. كانت مُستفزَّة شامِخةً لا تُطيع. تلوي عُنقها تُحاول عضّي. ترفسُ إلى الجانب الذي أقفُ فيه لإنزال خيمتي من ظهرها. كنتُ لأحسب أنها تُحذرني من المكوث هُنا، لو أنها برَكَت وحَملتني على ظهرها، ولكني لأوَّل مرَّة لم أفهمها. تركتها لصيقةَ حُوارها ونصبتُ خيمتي، ولم أعزم على نومٍ إلا بإدراكِ العِلمِ في وجهتي، ناخَت وَضْحَى أم لم تنُخ.

اختفى الهِلالُ الشَّحيحُ وتوارَت فلول النُّجومِ تقتفي أثره، وتبدَّدت جهمةُ الليل، والصَّغير لم يظفر برضعةٍ مُشبعة. لم أتمكن من النظر في وجهه، وهو يمسكُ ثديي بكفَّيه. أستحضرُ صوتَ راعي المجاهيم حادًّا يخترق الأُذُن: "لا بارك الله في الجَرباء"، ولم أُكمل إرضاعه. تركته في الخيمة وجلستُ إلى النَّار، فخرجَ يقعدُ إلى جواري، ينقرُ نقاطًا ويرسمُ خطوطًا ودوائر في الرَّمال. أرى فيها مَطرًا وبَرقًا وبتلاتِ زهور، وشمسًا كالتي نقشتُها على ظهر كفِّ عجوز القبيلة. رفعتُ رأسي إلى الشَّرق الذي تهيأ لبزوغ الفجر. الشَّمسُ تطلع من هُناك. الشَّمسُ تشرق من الكويت.

عزمتُ المسير والنَّاقةُ ما عزمت تطيع. أشاحت بوجهها القبيح لحظةَ مددتُ لها كفِّي بتمرة. تراجعتُ بضعُ خطوات. تغافلتُها، وقتَما مالت بعنقِها إلى صغيرِها. رمَيتُ التَّمرة. صفعتُها. بصقتُ في وجهها وحثوتُ عليها التُّراب ورحتُ أشتُمها. أقبلت إليَّ تُثبِّت خَطمَها أمام وجهي، تُطيل النظرَ إلى عينيّ دونما فعل شيء. ضياءُ الفجرِ في الأُفق. ووَضْحَى صِلدةٌ كالحِمار. سَقى الله زمانًا كنتُ أطرحُها فيه أرضًا. لو أني اليومَ أستطيع!

جثوتُ أمامَ النَّار ألهث، وصغيري غير بعيدٍ يُلاعِب الحُوار الذي باعد بين قائمتيه الخلفيتين وراحَ يُفرغ مثانته. رفعَ صغيري ثوبَه يتبوَّل ضاحكًا. أُبحلق في قُلفتِه خلالَ سَنا النَّار والظِّلال. لو أني تخلَّصتُ منها لأخرستُ صدى نبوءة العجوز التي ما انفكَّت تُدوّي في رأسي؛ إن عاشَ بقُلفَتِه يعيشُ ملعونًا.

عاودت الذِّئاب العواء، تهتكُ سِترَ الشُّروق غير آبهةٍ للشَّمس. "أو لعلَّها كلابٌ سائبة"، قلتُ في نفسي ما تَرومه. ركضَ الحُوار جَزِعًا إلى أمِّه التي راحت تدورُ حوله وتزمجر. فزعَ صغيري. ناديته ولكن النَّاقة كانت إليه أقرب. لم أفهم لِمَ أراد أن يلوذ بها عوضًا عني. ولِمَ جزعَت النَّاقةُ حينما جاءها راكضًا من ورائها والذئابُ تعوي، ولِمَ رفسَته. ولِمَ طارَ ولدي وحطَّ على بُعد عشرة أذرُع دونما بكاء. لمَ ركضتُ إليه وجثوتُ عنده، أُقلِّبُه. ولِمَ قطرةُ دمٍ واحدة من جسدِه لمْ تُرَق. ولِمَ لمستُ، ليتني ما فعلتُ، عظامَ صدرِه الهشيمة؟

مازال فيه النَّفَس. أيُّ صُراخٍ رجَّ الصَّحراءَ رجًّا ودوَّى في الفضاء. كنتُ أنتحب، ثُمَّ أُفلت ضحكاتٍ لا أقوى على كبحها بكفَّي. صرتُ أركض، وأركض حتى إذا ما تعبتُ من الركضِ أركض، ولا أصل المدينة.

فضحَت أشعةُ الشَّمسِ زرقةً مُترامية صوبَ الشَّمال لا تُشبه السَّراب. أدركتُ مصدر الشَّخير العظيم أقفُ أمامه وطفلي بين ذراعي، أمسحُ كحلَ دمعي بكتفي. أُحملِق في البحر كما لو أني أقفُ على تخومِ الكون. زُرقةٌ هائلةٌ مهيبةٌ كأنها ذَوب السَّماء استقرَّ في الأرضِ بساطًا ليس له آخر، يبدأُ من تحت قدمَي، يمتدُّ إلى الأُفق ويرتفعُ إلى السَّماء ويحيطُني من كُلِّ صوب. يا الله! كُلُّ هذا الماء، مثل الدَّمعِ، مالح!

حاذيتُ البحرَ أستأنفُ الرَّكضَ إلى الكويت، ولكني لم أصل، وولدي الذي بين

يديَّ قد مات.

أدرتُ للشمس ظهري أسوقُها إلى الغرب، صوبَ خيمتي عند الغُدران وناقتي. ناقتي الأثيرةُ مثيلتي. جئتُ بالشَّمسِ إلى الغُدران مُتعامدة فوقها. ألهثُ وحلقي يابس كأنه مُبطَّنٌ بالصُّوف. سوَّيتُ أمري وفرغتُ من الحفر والغمر، ولذتُ بخيمتي أكزُّ على أسناني أبتلعُ نَوحي وأَشرِقُ في ضحكٍ يُشبه السُّعال. أطبق فمي بكفَّي فلا يليق بيَ النَّحيبُ في هذه الأثناء، لأنه جديرٌ بالنَّاقة. تواثبَت في رأسي الأفكار. مسحتُ بظهرِ كفِّي دمعًا سحَّ على وجنتي، وأخرجتُ من مِزْوَدَتي خنجرَ صالح، وفي رأسي صدى صوتِ دخيل؛ لا تُفكِّري. مضيتُ صوبَ النَّاقة.

قابلتُها وأنا أضمُّ الخنجرَ بكفَيَّ تحتَ صدري. أهبطَت رأسها تُدنيه إلى وجهي كما لو أنها تُسلِّمني عنقها طواعية. تتَّقِدُ الشَّمسُ في عينيها لامعةً وهي تُطيل النَّظرَ في عينيّ. أبصرتُ في عينيها دخيلًا في لقائنا الأخير يومَ الدَّحْل، يُطرق وأنا أُطيل النَّظرَ في عينيه الدَّامعتين. أنفاسُ النَّاقةِ طردتني من خيالاتي في عينيها. أخفضتُ بصري أتحقَّقُ من وجهة الخنجر. يبسَ كحلُ دمعي على نقوشِ الحِنَّاء في ظاهر كفِّي. ضحكت. التفكير تأخير. طرحت الحُوارَ أرضًا ورفعتُ خنجر صالح بكفِّي اليُمنى عاليًا، وكما علَّمني أبي، عقرتُ الصَّغيرَ أمام أُمِّه.

دفعت النَّاقةُ جسد حُوارها برأسِها تتوَّسله حراكًا، ولكنه لم. طربتُ لوَلوَلتِها وأنا أمضي إلى خيمتي أمشي الهُوينى. أُشفي غليلي بنواحها بقية نهارٍ لم تكُن فيه بقية، وأنصتُّ إلى صوتٍ قديمٍ في رأسي. صوتي ساعةَ غروب يومِ الدَّحْل، أسألُ دخيلًا عن الخَلوج، يُجيبني: يهون عليّ ذبحها لو راحت لغيري. أسأله هل نلتقي؟ يُجيبني في عيون الإبل، أتطارَشُ عن إجابتِه أُعاودُ السُّؤال، وفي غير عيون الإبل هل نلتقي؟ ويجيءُ صوتُه بتلك الإجابة العالقة بين أرضٍ وسماء:

"العِلم عند الله".

يركبُ فَرَسه ويسابقُ الرِّيحَ يمضي ولا يعود.

تناهى إلى مسمعي صوتُ عزفِ رَبابةٍ يجيءُ بعيدًا من الشَّرقِ، أُنصِتُ إليه في هِدنات نُواح وَضْحَى التي طالَت وَلوَلتها. دلفتُ خيمتي وحشرتُ نفسي في زاويةٍ

أحملُ خنجر صالح يقطرُ دَمًا.

صمتت النَّاقةُ عن نواحِها..

وصمتَ كُلُّ شيءٍ إلا أنين رَبابةٍ يهبُّ من الشَّرق، أسمعه كلما أطبقتُ كفَّي على شفتيَّ أكتمُ كركرتي.

تكوَّرتُ على ذاتي أضمُّ ركبتيَّ إلى صدري، وأسندتُ إليهِما جبيني وأطبقتُ أُذنَي.

* * *

أنا المتهمُ بلا دمٍ على قميصي..

الخارجُ من رحمٍ ميّت

من نطفةٍ بلا ملامحَ

ولا ذاكرةٍ كاذبة.

دخيل الخليفة

بعدَ العِلم

إمارة الكويت 1901

دخيل

تبعتُ ساريًا الذي خبَّ مُسرعًا بخطواتٍ متباعدة يقتفي نواح الخَلوج، بين الغُدران القريبة من البلدة وبين الجَهراء. ترجَّلتُ مِن على ظهر الفَرَس أقفُ أمامَ تلٍّ بطولِ ذراعٍ مُحاطٍ بالحصى، يبدو قبرَ طِفلٍ صغير. ساري يقفُ إلى جواري يميلُ بعنقِه يتشمَّمُ حُوارًا ذبيحًا لا وسمَ على جسدِه. وإلى الأمام، على مبعدة خطوات، ناقةٌ وَضحاء نائحة تربضُ فوق خيمةٍ صغيرةٍ مُتهاوية.

مشيتُ نحوها بخطىً ثقيلة. تبدو غاضبةً في نوبة النُّواح، تتمايلُ برأسِها يمينًا وشمالًا والزَّبدُ يتطايرُ من مِشفريها. هدأتْ وهي تنظرُ إلى ساري صامتةً ساكنة. مالت بعنقها إلى الأسفلِ تدفعُ جسدها بقائمتيها الخلفيتين، تضغطُ وتحكُّ صدرها بالخيمة المكوَّمة تحتها، ثُمَّ استقامت تُهَوذِل في مِشيَتِها صوبَ ساري والحُوار الذَّبيح. وأنا أُنقِّل بصري بين وَسم آل مهروس أسفلَ عُنقها، 木، والبُقعةِ الحمراءِ أسفلَ صدرِها وبين قوائِمِها. تقدَّمتُ إلى الخيمة المتهاوية أنحني إليها. تحجَّرتُ راكعًا أنظرُ إلى ذراعٍ هامدةٍ تظهرُ من تحتِ ركام الخيمة؛ كفٌّ يُمنى بنقوشٍ أعرفُها تُطبق على خنجر صالح، وساعدٍ بآثارِ العَضِّ في باطِنِه.

امتطيتُ فَرَسي وأسرعتُ مُقفِلًا إلى الكويتِ أحفرُ قبرًا..

فسُجنت.

* * *

عُذرًا لهذا البحرِ،

شاطئه بدا وطنًا من الفَوضى،

من الأحزان،

بل عُذرًا إليكِ حمامةٌ غجريةٌ،

ما عادَ يُغرينا الهديلُ..

إني قتيلُكِ،

تشرَبين دَمي،

فأنهضُ باحثًا عني

.. وقد ضاعَ الدَّليلُ

دخيل الخليفة

إلى

بادية الكويت

ربيع 1941

الشَّيخ محمَّد

نفضَ الشَّيخُ عازف الرَّبابةِ ثوبه من الغُبار. وقفَ يلتقطُ أنفاسَه بعدما عبرَ بجِمالِه بوابة السُّور، وقد حمَّلها ما ينقص البادية من تمورٍ وبُنٍّ ورُزٍّ وحِنطة وشعير. أوصى طلال بانتظارِه عند قطيع الإبلِ ريثما يعود. تأكَّد من تعديل عِقاله، ثُمَّ سأل صبيَّه:

"كيف يبدو عِقالي؟".

"مُعتدلًا"، أجابه طلال.

أسدلَ الشَّيخُ كُمَّيه على ساعديه المشمَّرين، وسأل الصَّبي بابتسامةٍ حَييَّة:

"وكيف أبدو؟".

"شيخ الشُّيوخ يا شيخ محمَّد"، أجابه طلال بوسع ابتسامته.

ابتسمَ الشَّيخُ وقد تخضَّلَت عيناه بالدَّمع، ثُمَّ عبرَ البوَّابة دخولًا يحجُّ إلى المقبرة الغربية في البلدةِ على دأبِه. غابَ سويعةً يزور ساكنةَ قبرٍ حفره قبل عقودٍ أربعة، يجلسُ إليه مُعتدِل العِقال يُناجي صاحبته.

تجاوزَ السُّورَ خروجًا بوجهٍ باسِمٍ صبوح. أمالَ عِقاله يمينًا، وتقدَّم أمامَ الجِمال يحدوها.

"شيخ محمد!"، قالَ الصَّبي الأجير.

التفتَ الشَّيخُ يحدجُ الصَّبيَّ يرفعُ حاجِبًا.

"أراكَ تكره المكوثَ في البَلدة، ولكنك تحرصُ على زيارتها كُلَّ موسم".

حارَ الصَّبيُ بملامح الشَّيخ. أبصر في وجهِه هجينَ سرورٍ وأسى وقتَ أجاب:

"دفنتُ فيها حبيبًا، كي لا يضيع في الصَّحراءِ قبرُه".

"هل أنتَ دخيل بِن أسمر يا شيخ محمد؟"، سأله الأجير بيقين.

ابتسمَ الشَّيخُ ابتسامةً غريبةً واسعةً، ومرَّرَ أصابعه يتحسَّس نُدبةً في حاجبه، قبلَ أن يُديرَ ظهره للصَّبي. ارتعشت شفته السُّفلى واختلج منخراهُ، وأجابه ماضيًا في السَّير:

"أنا محمد الشَّاوي يا طلال يا ولدي".

ركضَ الصَّبي يسبقُ الشَّيخَ، وهو يضعُ كفَّه على رأسِه كيلا يسقُط عِقاله. وقف أمامه:

"وأين دخيل بِن أسمر؟".

الابتسامة على وجه الشَّيخ ما زالت، كما لو أنه يطربُ لسماعِ الاسم. قطَّب حاجبيه يخزرُ الصَّبي:

"من؟".

"دخيل بِن أسمر"، أجابه طلال.

هزَّ الشَّيخُ رأسه طربًا، ثُمَّ انحنى على الأجير يُمسك بكتفَيه:

"ما به؟".

"هل بالفعلِ قتلَها مع ابنِها؟ أم أنها قتلت صغيرها وحزَّت عُنقها بالخنجر الذي كان في يدها؟ وهو، أين حلَّ بعد السِّجن؟".

هطلَ الدَّمع من عيني الشَّيخ جزيلًا، يغوصُ في أخاديد وجهه ويختفي في

لُحيتِه:

"من؟"، كرَّر الشَّيخُ سؤاله باسِمًا مُتغضِّن الوجه.

يُجيبه طلال نافدَ الصَّبر:

"دخيل.. دخيل بِن أسمر يا شيخ محمد".

زفرَ الشَّيخُ زفرةً طويلةً قبلَ أن يفِيَ بنَذرِه القديم إزاء من ينطقُ بالاسم. ضمَّ الصَّبيَ إلى صدرِه في عِناقٍ طويل، بلَّل كتفه بأدمُعِه.

"يصلُ دخيل ليل بعد غَد إلى ديارنا".

"إلى ديار صالحة؟!".

سأله الصَّغير فاضًّا عناقهُما يُحملق في وجه الشَّيخ. هزَّ الشَّيخُ رأسه باسمًا يؤكد:

"إلى ديار صالحة".

ابتسمَ طلال ابتسامة رضًا واسعة. سارت إبلُ الشَّيخ محمد تتبع نداءهُ صوبَ الغرب، حيث محل إقامتِه في ديار صالحة، وسارَ طلال وراءَ آخر ناقة. صاحَ يسألُ الشَّيخ:

"والخلوج؟ لماذا لم يعثُر رجالُ بِن صُباح على الخَلوج عند جُثَّة المرأة".

لم يُجب الشَّيخ، يمشي موليًا ظهره لِـ طلال الذي سأله رافعًا صوته:

"وهل هُناك ثمَّة خَلوج؟!".

لم يرَ طلال سبَّابة الشَّيخ محمد يرفعها إلى السَّماء، ولكنه سمِعَ إجابةً وقرت في نفسِه:

"العِلم عند الله".

* * *

فالح

تمَّت

مُلحق

ديار شِبه الجزيرة العربية > بادية الكويت > باب الصَّاد:

ديار صالحة[2]

وبخلاف الصابرية السالف ذكرها، عُرفت ديار صالحة باسمها هذا في مطلع القرن العشرين، وهي مساحة صحراوية منخفضة، معروفة بكثير شعابِها الغزيرة التي تحفظ مياه الأمطار مدة طويلة، ما يجعل من الأرض مقصدًا للإقامة والرعي في مساحات خضراء تستمر أسابيع ما بعد الربيع. تقع ديار صالحة في بادية إمارة الكويت شمال شرق شبه الجزيرة العربية، بين ما كان يُعرف بأراضي قبيلة آل مهروس وبين محل إقامة عائلات من قبيلة الأسمر. وهي أرض فضاء لم يتم تقييد اسمها الدارج شفاهةً في السجلات الحكومية، وتقع على بعد اثنين وستين ميلا غرب الكويت العاصمة، وأربع وأربعين ميلا غرب الجهراء.

ذكرَ الشاعر والمؤرخ محمد بن فالح آل مهروس وهو في سن الرابعة والثمانين، في آخر لقاء نُشر له في جريدة «الوطن» العدد 3233 سنة 1984 إن المنطقة لم تكن تُعرف باسمها هذا قبل معركة الصّريف سنة 1901، وإن سبب التسمية يعود إلى امرأة من آل مهروس تُدعى صالحة، تركها زوجها مع ولدها في ذلك المكان، والتحق في صفوف الهجانة ضمن قوات أمير الكويت في المعركة. كان الزوج هجانا من قبيلة آل مهروس، وهو صالح بن مهروس، عم الشاعر والمؤرخ محمد بن فالح.

يقول محمد بن فالح، وهو ابن داهية شعراء آل مهروس، المعمِّر الشهير بالغزل والهجاء، في لقاء الجريدة: «أخبرني أبي - أطال الله في عمره ومتعه بالصحة - أن عمري كان عامًا واحدًا عندما مات عمي صالح رحمه الله في الكويت متأثرًا

بجراح المعركة، بعد أن أوصى والدي بزوجته وابنِه الرضيع اللذين تركهما عند الشعاب الغربية قبيل انضمامه إلى صفوف الهجانة. قال لشقيقِه الأصغر يُذكره: يا فالح ديار صالحة.. يا فالح ديار صالحة. فعرفت منطقة الشعاب الغربية هذه التسمية منذ تلك الواقعة».

ورد اسم ديار صالحة في أكثر من قصيدة في الموروث الشعبي لكبار الشعراء مثل الشاعر الكويتي ضاري بِن خليفة (????-1990)، والشاعر السعودي مسفر آل وضَّاح (1938-2002)، أما أقدم قصيدة تضمنت التسمية فهي لِـ دخيل بِن أسمر (1880-1978) [الذي وُلد في الكويت وماتَ فيها ولم يتحصَّل على جنسيتها][3].

وفي منتصف ثمانينيات القرن الماضي وثَّق الشاعر والإعلامي حَمَد العَتب في إحدى حلقات برنامجه التلفزيوني "لوحات شعبية" لمحات من سيرة الشاعر دخيل بِن أسمر. متطرقًا لأبياته الشهيرة حول ديار صالحة، تلك الأبيات التي حفظها ودوَّنها المرحوم طلال بن عبدالرحمن، الذي قيلَ إنه كان أجيرًا عند الشَّاعر دخيل بِن أسمر في أربعينيات القرن الماضي، كما كان واحدًا من أهم المصادر الشفوية للدكتور ناصر الطالحي الذي كان أول من حدَّد مولد الشاعر [الذي وُلد قبل وفاة الشاعر المعمِّر هزَّاع آل مهروس الشهير بلقب "أبوغرابين" بعام واحد، والمحقَّق أن وفاة أبي غرابين كانت في 1881]، كما ورد في كتاب المؤرخ ناصر الطالحي؛ "دخيل بن أسمر؛ حياته وشعره".

أما في الأدب فقد [تطرق القاص والروائي الكويتي صادق أبو حَدَب إلى منطقة ديار صالحة في قصته "ناقشة الحناء" في العدد الثاني من مجلة "البعثة" التي أسستها بعثة الطلبة الكويتيين في جمهورية مصر العربية عام 1964][4]. وبعد خمس وخمسين سنة من تاريخ نشر تلك القصة أصدر الروائي الكويتي سعود السنعوسي روايته القصيرة "ناقة صالحة"، والتي تُعيد إلى الأذهان قصة دخيل بِن أسمر وصالحة آل مهروس التي ذكرها التاريخ بأكثر من رواية، إذ قدمت رواية "ناقة صالحة" صورة مجردة مما شابها من أسطرة، بحكاية متخيلة مستوحاة من قصيدة شهيرة للشاعر محمد بن عبدالله العوني.

ولم يرد ذكر لديار صالحة في الخرائط القديمة بحسب بحثنا عدا خريطة

واحدة قام بتجديدها بشكل غير دقيق الرَّحالة J. R. Edward[5] في مطلع القرن العشرين، في رحلته إلى شمال الجزيرة العربية والعراق حيث أقام قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، وقد قام بتحديد الموقع بفارق بضعة أميال غربًا. ويذكر في كتابه "صحراء العرب" في الصفحة 221: [في ربيع 1901، التقينا أنا ودليلي - حادي الإبل السُّود - بفتاة يافعة تربط طفلًا إلى ظهرها وقد أضناهُما العطَش، تقطع الصَّحراء مشيًا على قدميها إلى الشَّرق، كانت فتاة فاتنة لولا غريب تصرفاتها، وما شابَ وجهها من آثار قديمة تشبه بثور الحصبة. تقول الفتاة إنها من مكان يدعى ديار صالحة، ناحية الغرب عند الصدوع العظيمة، ولكن الدليل أخبرني أنه لم يسمع بتلك الديار قط، ما أثار فضولي لزيارتها لأتتبع حكاية الفتاة المجنونة التي هاجمت دليلي وعضته في كتفه..][6].

وبالعودة إلى ما ذكره الرَّحالة الإنكليزي حولَ فتاةٍ وصغيرها؛ فإننا نستقي واحدًا من مصادر السنعوسي لكتابة روايته "ناقة صالحة"، إلا أن كتاب "صحراء العرب" لم يورد ذكرًا لناقةٍ بيضاء وحُوارها بصحبة الفتاة وصغيرها كما جاء على لسان بطلة رواية "ناقة صالحة".

Notes

[1←]
ج: النَّاقةُ إذا ماتَ أو ذُبِحَ حُوارها، تظلُّ مُدَّةً تحنُّ إليه ويُخالجها الحُزن حيثُ يكونُ لها صوتُ عويلٍ ونحيبٍ يُثير الأسى، وتعودُ إلى المكانِ الذي فقدته فيه. وفي لسانِ العرب: ناقةٌ خَلُوج؛ جُذِبَ عنها ولدُها بذبحٍ أو موتٍ فحنَّت إليه.

[2←]
اء تاهت في الصَّحراء: فهرس ديار شبه الجزيرة العربية، ج 2، د. نزَّال بن فيصل الحاكم.

[3←]
يتيون البدون في الموروث الشعبي، صيَّاح بَن عيد الشطيري.

[4←]
ص يتيمة في المجلات الكويتية 1929-1955، خالد سعود الزيد.

[5←]
الة إنكليزي قام بتجديد الخرائط البرتغالية القديمة في شمال شبه الجزيرة العربية والعراق.

[6←]
حراء العرب، J. R. Edward، ترجمة د. هلال عبداللطيف.